الفصل الأول

البرقية العاجلة

وصلت البرقية في ساعة متأخرة من بعد الظهر، بينما كنت أجلس إلى مكتبي في غرفة المعيشة الصغيرة بمنزلي في طنطا. كانت الورقة الصفراء المطوية تحمل ختماً أحمر وعبارة «عاجل جداً». فتحتها بأصابع متأنية، وقرأت السطور القليلة المكتوبة بخط واضح:

«تعال فوراً. المختبر. المقطم. شريف.»

لا أكثر. لا تفسير. لا تحية.

وضعت البرقية على المائدة الخشبية ونظرت من النافذة. كانت الشمس تميل نحو الغرب، تلقي بأشعتها الذهبية على أسطح المنازل المجاورة. في الأيام العادية كنت سأبتسم لهذه الدعوة المفاجئة من صديقي القديم. لكن شيئاً في قصر العبارة وشدة الاستعجال جعل صدري يضيق.

عرفت شريف فايز منذ سنوات الجامعة. كان طالبًا هادئًا، يحب المختبرات أكثر مما يحب المحاضرات، ويقرأ في علم الأحياء الدقيقة كمن يقرأ رواية مشوقة. بعد التخرج اختفى تقريباً في أبحاثه. نشر مقالات في مجلات علمية محترمة عن البكتيريا الصناعية واستخداماتها في إنتاج الخمائر والألبان، ثم انسحب إلى مختبره الصغير على تلال المقطم، بعيداً عن الضوضاء والناس. كان يقول دائماً إن الوحدة تمنحه صفاء الذهن الذي يحتاجه العلم.

ولم أكن أزوره كثيراً. المسافة بين طنطا والقاهرة ليست بالقصيرة، وحياتي أنا أيضاً امتلأت بالعمل والمسؤوليات. لكن صداقتنا ظلت قائمة على شيء أعمق من اللقاءات المتكررة: احترام متبادل وثقة صامتة.

هذه البرقية كانت مختلفة. شريف لم يكن رجلاً يرسل برقيات عاجلة. حتى في أوقات أبحاثه الأكثر حماساً كان يكتفي برسائل بريدية طويلة ومفصلة.

قررت أن أذهب في اليوم نفسه.

Downstreamت حقيبة صغيرة ببعض الملابس ودفتري وأقلامي، وأخبرت جارتي العجوز أنني سأغيب لأيام قليلة. استأجرت سيارة وخرجت من المدينة مع غروب الشمس. الطريق إلى القاهرة كان مزدحماً في البداية، ثم خلا تدريجياً كلما ابتعدنا عن الأضواء. في الظلام شعرت بشيء غريب يزحف إلى صدري، كأن الهواء نفسه يحمل إنذاراً لم أستطع تفسيره.

تذكرت آخر مرة رأيته فيها قبل عام تقريباً. كان أنحف مما أعرفه، وعيناه خلف النظارة السميكة تبدوان متعبتين، لكنه كان يتحدث بحماس عن مشروع جديد يتعلق بالكائنات الدقيقة التي تعيش في بيئات قاسية. ضحك حينها وقال: «الكون أكبر مما نتصور، يا صاحبي، وأصغر أيضاً.»

الآن وأنا أقود في الليل، بدت تلك العبارة محملة بمعنى لم أكن أدركه حينها.

بعد منتصف الليل وصلت إلى سفح المقطم. الطريق الضيق المتعرج صعد بين الصخور والأشجار القليلة. الهواء هنا كان أبرد وأنقى، تفوح منه رائحة تراب رطب ونباتات برية. أطفأت مصابيح السيارة حين اقتربت من المكان، وسرت على الأقدام في الممر الضيق الذي يؤدي إلى المختبر.

كان المبنى صغيراً، محاطاً بسور أصفر مرتفع، وتحجبه أشجار بلوط كثيفة. في ضوء القمر بدا كأنه شيء نبت من الأرض نفسها وليس من صنع الإنسان. وعلى الحشائش المحيطة انتشرت فطريات بنية غريبة الشكل، كأنها عيون تراقبني من الظلام.

توقفت أمام الباب الحديدي. كان قلبي يدق بقوة لا تتناسب مع مشي الهادئ الذي قطعت به الطريق. رفعت يدي لأطرق، لكن الباب انفتح فجأة من الداخل قبل أن تلمس أصابعي الخشب.

وقف شريف فايز على العتبة، شاحب الوجه، والهالات السوداء حول عينيه أعمق مما رأيتها في أي وقت مضى. كانت يداه ترتجفان قليلاً وهو يمسك بمقبض الباب، ونظراته من خلف العدسات السميكة بدت تائهة ثم ثبتت عليّ فجأة.

قال بصوت أجش، بلا تحية:

«تأخرت.»

ثم تنحى جانباً ليدعوني أدخل.

الفصل الثاني

المختبر المخفي

دخلت خلفه دون أن أنطق بكلمة. أغلق الباب خلفنا بصوت مكتوم، ثم استند إليه للحظة كمن يلتقط أنفاسه بعد جهد طويل. في الضوء الخافت القادم من مصباح السقف الصغير بدت ملامحه أوضح: الجلد على عظمتي الخدين شاحب إلى درجة البياض، والأوردة نافرة على جبهته، والهالات السوداء حول عينيه كأنها حُفرت بسكين. كان يرتدي رداء المختبر الأبيض المتسخ في بعض المواضع، وقد ترهل على جسده النحيل.

سار أمامي في الممر القصير دون أن يلتفت. رائحة المكان اجتاحتني دفعة واحدة: خليط من مواد كيميائية خفيفة، وتربة رطبة، وشيء آخر لا أستطيع تحديده... كرائحة فطر قديم أو خشب متعفن تحت المطر. كانت الرائحة لزجة بطريقة ما، تعلق في الحلق.

الغرفة الكبيرة التي وصلنا إليها كانت مغمورة بضوء الشمس المتسرب من النافذة الواسعة في الجدار المقابل، رغم أن الشمس كانت قد مالت كثيراً. الصف الطويل من المجاهر امتد على المنضدة الخشبية المغطاة بصفائح الزنك. بعضها بصري تقليدي، والبعض الآخر إلكتروني ضخم، عدساته تلمع كلمع الزجاج المصقول. على الأرفف المتراصة في الجدران اصطفّت عشرات الأطباق الزجاجية المستديرة، وفي داخلها مستعمرات بكتيرية دقيقة بلون برتقالي وأخضر باهت. وإلى جوارها أوانٍ زرقاء باهتة مملوءة بسوائل عكرة، قال لي شريف يوماً إنها مياه مستنقعات تحتوي على طحالب وكائنات وحيدة الخلية.

كان المكان منظماً بطريقة مهووسة، لكنه بدا لي الآن خانقاً. الأشجار خارج النافذة ألقت ظلالاً كثيفة على الأرضية، فبدت الغرفة كأنها تقع في قاع بئر أخضر. وعلى الحشائش التي رأيتها من بعيد كانت الفطريات البنية تنتشر كبقع داكنة، جذورها تضرب عميقاً في التربة كأنها تمسك بالأرض بقوة غريبة.

التفت شريف إليّ فجأة. مدّ يده وأمسك بيدي، وضغط عليها بقوة غير متوقعة من رجل يبدو بهذه الهشاشة.

قال بصوت مرتجف فيه شيء من الامتنان:

«كم أنا مسرور بمجيئك.»

ابتسمت ابتسامة باهتة. تسلل لون أحمر خفيف إلى خديه للحظة، ثم اختفى. كان واقفاً وظهره إلى النافذة، ينظر إلى الصف الطويل من الأجهزة بشرود. عدسات المجاهر كانت تلمع في الضوء المتسرب، وكأنها تراقبنا هي الأخرى.

حاول أن يمسك بمقبض باب داخلي ليفتحه أمامي، لكن يديه ارتجفتا بشدة. انعطف جسده فجأة، وللحظة ظننت أنه سيسقط. مددت يدي وأمسكت بذراعه. كان عظم الذراع رفيعاً تحت قماش الرداء، والجلد بارداً.

قال بلهجة غريبة، مفعمة بتحدٍ خفي:

«تأخرت في الحضور.»

تعجبت من جفاف صوته. قطعت أكثر من مئة كيلومتر استجابة لبرقيته، ووصلت في منتصف الليل تقريباً، لكنه يتحدث كمن ينتظر منذ ساعات طويلة دون صبر. لم أغضب. الصداقة الحقيقية تظهر في اللحظات العصيبة، وكنت أشعر أن شيئاً ثقيلاً يضغط على صدره، شيئاً لا يستطيع حمله وحده.

سرنا معاً نحو منتصف الغرفة. كنت أنظر إليه من الجانب، أحاول أن أقرأ ما حدث له خلال الأيام الماضية. كانت عيناه تتحركان بسرعة بين الأجهزة والأطباق، ثم تعودان إليّ ثم تبتعدان. بدا كأنه غير مسيطر تماماً على نفسه، كمن يسمع صوتاً لا أسمعه أنا.

توقفت أمام المنضدة الطويلة. وضعت يدي على سطحها البارد. كان المعدن يلمع تحت أصابعي، وفوقه صف من الشرائح الزجاجية الدقيقة مرتبة بعناية. رفعت رأسي ونظرت إلى المجاهر واحداً تلو الآخر. الثالث من نهاية المنضدة كان أكبرها، وأكثرها تعقيداً. عدسته العلوية السوداء بدت كعين مغلقة تنتظر من يفتحها.

شريف كان يراقبني الآن بثبات. امتلأ وجهه بتعبير يصعب وصفه: مزيج من الرعب والأمل واليأس. اقترب خطوة، وثبت أصابعه الهزيلة على ذراعي.

قال بصوت هامس مرتعد، وهو يومئ برأسه نحو المجهر الإلكتروني:

«انظر إلى هذا... الثالث من نهاية المنضدة.»

ثم صمت لحظة، كأن الكلمات التالية كانت ثقيلة جداً على لسانه.

الهواء في الغرفة بدا أثقل فجأة. ضوء الشمس الذي كان دافئاً قبل دقائق أصبح باهتاً، والظلال أطول. من النافذة سمعت حفيف أوراق البلوط كهمس بعيد. ورائحة الفطريات الرطبة صعدت من الأرض كأنها تتنفس معنا.

Intermediateات إليه. كان ينتظر ردي، أو ربما ينتظر أن أفعل ما يطلبه قبل أن يتراجع عن قراره.

مددت يدي نحو المجهر.

الفصل الثالث

صداقة تحت الضغط

سحبت يدي قبل أن تلمس المجهر.

التفت إلى شريف. كان يقف على بعد خطوة واحدة فقط، أصابعه ما زالت مثبتة على ذراعي كأنها تخشى أن أبتعد. في الضوء المتسرب من النافذة بدا وجهه أكثر شحوباً، والهالات السوداء حول عينيه أعمق مما كانت عليه قبل دقائق.

قلت بهدوء، محاولاً أن أجعل صوتي طبيعياً:

«هل أنت بخير، شريف؟»

ابتسم ابتسامة باهتة لم تصل إلى عينيه. أبعد يده عن ذراعي ببطء، كأن الحركة نفسها تكلفه جهداً، ثم دار حول المنضدة وجلس على الكرسي الخشبي القديم قرب النافذة. وضع كفيه على ركبتيه، ولاحظت كيف ترتعشان رغم محاولته السيطرة عليهما.

قال بصوت منخفض:

«تأخرت... أكثر مما يجب.»

جلست على الكرسي المقابل له. المسافة بيننا لم تكن أكثر من مترين، لكنني شعرت كأن هوة تفتح بينهما. نظرت حولي مرة أخرى إلى الغرفة: المجاهر، الأطباق، الأواني الزرقاء، الظلال الخضراء التي تلقيها أشجار البلوط. كل شيء بدا مألوفاً وغريباً في آن واحد.

قلت:

«قطعت أكثر من مئة كيلومتر في الليل. وصلت بأسرع ما استطعت.»

هز رأسه ببطء. لم يعتذر. لم يبتسم. فقط قال:

«أعلم. لكن الأيام... الأيام كانت طويلة.»

صمتنا. سمعت حفيف الأوراق خارج النافذة، وصوت بعيد لطائر لم أتعرف عليه. الرائحة الرطبة ما زالت تعلق في حلقي.

فكرت في السنوات التي عرفنا فيها بعضنا. في الجامعة كان شريف يجلس دائماً في الصف الأخير، دفتره مفتوح على رسومات دقيقة لخلايا وبكتيريا، بينما الآخرون يتهامسون أو ينظرون إلى الساعة. بعد المحاضرات كنا نذهب أحياناً إلى مقهى صغير قرب الحرم، فيطلب شاياً أسود ويبدأ بالحديث عن عوالم لا تُرى بالعين المجردة. كان يقول إن الإنسان يعيش على سطح الوجود فقط، وإن الحقيقة الحقيقية تختبئ في المقاييس الصغيرة جداً أو الكبيرة جداً.

أتذكر مرة سألته:

«لماذا تختبئ في المختبرات طوال الوقت؟»

فأجاب بابتسامة هادئة:

«لأن الناس يُرهقونني. أما الكائنات الدقيقة... فهي لا تكذب.»

الآن، وهو جالس أمامي بهذا الوجه المنهك، بدا كأنه فقد حتى تلك الطمأنينة القديمة.

قلت له بحذر:

«تحدث إليّ. ما الذي حدث؟»

رفع رأسه ونظر إليّ مباشرة. خلف العدسات السميكة كانت عيناه محمرتين من قلة النوم. فتح فمه ثم أغلقه. مد يده إلى جيب رداء المختبر وأخرج منديلاً أبيض ومسح جبينه. كان العرق يتصبب رغم برودة المكان النسبية.

قال أخيراً، بصوت أجش:

«أربعة أيام... أربعة أيام وأنا وحدي مع...»

توقف. ابتلع ريقه. ثم أضاف بصوت أخف:

«مع شيء لم أكن أتوقع وجوده.»

شعرت بقشعريرة خفيفة تسري في عنقي. لم أسأله مباشرة. انتظرت.

استطرد وهو ينظر إلى الأرض:

«كنت أعمل كالعادة. الشرائح، المستعمرات، التجارب الروتينية. ثم... ظهر. لم أطلبه. لم أبحث عنه. هو الذي... جاء.»

رفع عينيه إليّ فجأة، وفيهما مزيج غريب من الرعب والامتنان:

«وأنت جئت. هذا يكفي الآن.»

مددت يدي عبر المسافة ووضعتهما على يده. كانت باردة ومرتجفة.

قلت بهدوء:

«أنا هنا. لن أذهب. مهما كان الأمر.»

ضغط على يدي بقوة قصيرة، ثم سحبها. نهض من الكرسي ومشى نحو النافذة. وقف ينظر إلى أشجار البلوط والسور الأصفر والفطريات البنية المنتشرة على الحشائش. بدا ظهره أكثر انحناءً مما أتذكر.

قال دون أن يلتفت:

«هل تتذكر ما قلته لك قبل عام؟ عن الكون... أنه أكبر مما نتصور وأصغر أيضاً؟»

أومأت رغم أنه لا يراني.

«نعم.»

«كنت أتحدث نظرياً حينها. الآن... أصبحت أعرف.»

التفت إليّ ببطء. وجهه في الضوء الجانبي بدا كقناع شاحب.

قال بصوت منخفض جداً، كأنه يخشى أن يسمعه أحد غيري:

«هناك شيء تحت ذلك المجهر. شيء... يفكر.»

شعرت بقلبي يتسارع. الهواء في الغرفة بدا أثقل فجأة، والظلال أطول. نظرت إلى المجهر الإلكتروني الثالث في نهاية المنضدة. عدسته السوداء بدت الآن كعين مفتوحة تنتظر.

شريف عاد وجلس. وضع مرفقيه على ركبتيه وأخفى وجهه بين كفيه للحظة، ثم رفع رأسه.

قال:

«لن أطلب منك أن تصدقني فوراً. فقط... انظر. وبعدها قرر إن كنت ستبقى أو ترحل.»

نظرت إلى يديه المرتجفتين، ثم إلى عينيه المتعبتين، ثم إلى المجهر الذي ينتظر في نهاية المنضدة.

قلت بصوت ثابت رغم الخوف الذي بدأ يتسلل إلى صدري:

«سأبقى.»

ابتسم شريف ابتسامة واهنة، فيها شيء من الارتياح القديم، وفيها شيء آخر... كأنه يعرف أن قراري هذا سيجعلني شريكاً في رعب لم أكن أتخيله بعد.

الفصل الرابع

تحت العدسة

نهض شريف من كرسيه ببطء، كمن يحمل وزناً ثقيلاً على كتفيه. سار نحو المنضدة الطويلة دون أن يتكلم، وتوقف أمام المجهر الإلكتروني الثالث. أشار إليه برأسه مرة واحدة فقط، ثم تنحى جانباً قليلاً ليفسح لي المكان.

اقتربت.

السطح المعدني للمنضدة كان بارداً تحت أصابعي. المجهر أمامي ضخم ومعقد، عدسته العلوية سوداء لامعة كعين مغلقة. أدرت القرص الدوّار ببطء حتى صارت العدسة الشيئية الصغرى فوق الثقب في المنصة. ثم انحنيت وألصقت عيني بالعدسة العينية.

في البداية لم أرَ شيئاً سوى ضباب وردي خفيف. عدّلت المنظم الكبير تدريجياً إلى الأعلى. الصورة بدأت تتضح.

نقاط دقيقة من المادة تتحرك بسرعة داخل سائل مصبوغ بلون أحمر وردي. كائنات عديدة غريبة الشكل، شاردة، مقززة، تترنح إلى الداخل والخارج. تتكاثر. تلتهم بعضها البعض. في مساحة لا تزيد عن سنتيمتر مربع كانت مئات من الأجسام تتلوى بأفواه شرهة وأجساد غير منتظمة. عالم كامل من الوحشية المجهرية يدور تحت عيني في صمت تام.

ثم رأيته.

كائن مختلف تماماً عن البقية. شكله كجرس مقلوب، يسبح ببطء نحو مركز الشريحة. توقف هناك. قام بحركات عجيبة بجسمه، كأنه يختبر المكان أو يعلن وجوده. لم يكن يشبه أياً من الكائنات الأخرى التي تتلوى حوله. بدا أكبر نسبياً، وأكثر تعقيداً في تركيبه. صدفة نصف شفافة خارجية، وأخرى داخلية أصغر مخروطية الشكل، ذات ألوان متداخلة في نسيجها. داخل الصدفة كائن داكن البشرة، له عدة آذان وذقن مدبب الطرف، وعيون ذات شقوق طولية. كان مستريحاً على ظهره، أذرعه العديدة الصغيرة مطوية فوق صدره، وأرجله الدقيقة ملتفة حول بعضها. شعر محمر يغطي جسمه ويتماوج مع السائل الكثيف.

أخذت أتفرس فيه بذهول ورعب متزايد. شعرت أنني أنظر إلى شيء خارج التجربة الإنسانية المألوفة. شيء لا ينتمي إلى هذا الكوكب.

فجأة... فتح عينيه الصغيرتين ونظر بثبات إلى أعلى. نحوي.

ثم جاءت الكلمات.

لم تكن صوتاً مسموعاً. كانت موجات بطيئة حارقة تتردد داخل ذهني مباشرة:

«أنت صديقه... لن أوذيك... لا تخشاني.»

ابتعدت عن المجهر بسرعة كمن لُسع. تنفست بشدة، وقلبي يدق كأنما يريد أن يخرج من صدري. مسحت عرقاً بارداً عن جبهتي بظهر يدي. الغرفة دارت حولي لحظة، ثم استقرت.

التفت إلى شريف.

كان يراقبني بوجه ممتلئ بمزيج غريب من الرعب العميق... والارتياح. كأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ أيام، وكأنه في الوقت نفسه يخشاها أكثر من أي شيء آخر في العالم.

قال بصوت مرتعد، شبه هامس:

«رأيته؟»

أومأت برأسي. لم أستطع الكلام بعد.

ابتسم ابتسامة واهنة مكسورة، ثم أضاف وهو يلوّي أصابعه العصبية:

«تحدث إليك... أليس كذلك؟»

هززت رأسي مرة أخرى. الكلمات ما زالت تحترق في ذهني كأثر نار بطيئة.

شريف اقترب خطوة، ووضع يده الباردة على كتفي.

قال:

«الآن أنت تعرف. الآن لم أعد وحدي.»

نظرت مرة أخيرة إلى المجهر الإلكتروني. عدسته السوداء بدت الآن مفتوحة على مصراعيها، والشيء الذي بداخلها... كان ينتظر.

الفصل الخامس

الحقيقة الأولى

جلست على أقرب كرسي، وما زالت موجات الكلمات الحارقة تدور في رأسي.
شريف سحب كرسياً آخر وجلس مقابلي، يديه مضمومتين بقوة فوق ركبتيه كمن يحاول منعها من الارتعاش.

صمتنا برهة. ثم قال بصوت منخفض، لكنه أوضح مما كان عليه قبل دقائق:

«أتى منذ أربعة أيام. في سفينة فضاء دقيقة جداً... أصغر من أن تراها العين المجردة. خبأها في مكان ما داخل المختبر. رفض أن يخبرني أين، رغم كل محاولاتي.»

رفعت رأسي ونظرت إليه. كان يتحدث الآن بطريقة أكثر تماسكاً، كمن ي حملاً ثقيلاً بعد طول انتظار.

استطرد:

«يتواصل بالتخاطر. ينقل تسلسل الأفكار كاملاً في ومضة واحدة. لا يحتاج إلى كلمات منطوقة. ولهذا استطاع أن يحدثك وأنت تنظر إليه.»

قلت بصوت أجش:

«قال لي... إنني صديقك. وإنه لن يؤذيني.»

أومأ شريف ببطء.

«هذا ما قاله لي أيضاً في البداية. ثم بدأ... يشرح.»

نهض ومشى بضع خطوات نحو النافذة، ثم عاد ووقف أمامي.

«هو من كوكب يسميه "أتيكا". حضارة مجهرية كاملة. يروننا... نحن البشر... كحيوانات أليفة متقدمة قليلاً. يمتلكون بعض الميزات المستحبة، لكنهم يشاركون في ميراث من السلوك يسبب لهم النفور. الحروب عندهم تُعتبر وحشية حيوانية خالصة. إنجازاتنا الحضارية، في نظره، أقل جدارة بالاعتبار من الحياة الاجتماعية للنمل والنحل.»

شعرت بشيء بارد يسري في عمودي الفقري.

سألته:

«ولماذا جاء إلى هنا؟»

هز شريف كتفيه النحيلين.

«مستكشف. أو مندوب. أو... شيء آخر لم يوضحه تماماً. قال إن عالمهم مليء بإشعاعات وطاقات هائلة تحيط بكوكبهم. أرسلوه ليدرس حالات على كواكب أخرى. لكنه رفض الاتصال المباشر مع كائنات أخرى، وقال إنهم يفضلون المراقبة من بعيد.»

صمت قليلاً، ثم أضاف بصوت أكثر حدة:

«قبل يومين أراد أن يوضح لي مدى القوة التي يمتلكها. نزع الأغلفة الشفافة التي تحيط بجسمه... وأطلق موجة طاقة. قتل جاري المهندس شوكت فهمي. كان جالساً في حديقة منزله مع زوجته وطفليه. الصحافة قالت إنها صاعقة. لكنني رأيته بعيني... ينفض، يصرخ، ثم يسقط بلا حراك.»

ابتلعت ريقي بصعوبة.

«وهل يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك؟»

نظر إليّ شريف بعينين محمرتين.

«مدة موجات الطاقة غير محدودة. إذا عبرت القارات يمكن أن تهلك الآلاف. هي كخيوط ضوئية غير مرئية، أو أوتار فائقة كونية، تلامس مادة البروتوبلازم في الخلايا فتدمرها تماماً ثم تستمر.»

جلست صامتاً برهة. ثم قلت، محاولاً ترتيب أفكاري:

«لكنه... صغير جداً. كيف يملك كل هذه القوة؟»

ابتسم شريف ابتسامة مريرة، لأول مرة منذ وصولي.

«لأن الإنسان يربط دائماً بين الحجم والقوة. لكن الحجم والقوة ليستا مترابطتين في كل مكان في الكون. فكّر في النجوم النيوترونية. تحت قوى الجاذبية المروعة في نهاية حياة النجم، تتسحق مادته حتى تقترب الإلكترونات من نواها وتتحول إلى نيوترونات. يتقلص النجم الهائل إلى قطر حوالي عشرة كيلومترات فقط... ومع ذلك يزن السنتيمتر المكعب من مادته حوالي مئة مليون طن.»

صمت، ثم أضاف بهدوء:

«الأغلفة الشفافة التي تحيط بهذا الكائن... غير موصلة للطاقة. هي دروع. إذا نُزعت، يتدفق منه إشعاع مدمر. جسمه كله كتلة من بؤر إشعاعية.»

نظرت مرة أخرى إلى المجهر الإلكتروني في نهاية المنضدة. بدا الآن أبعد وأكثر تهديداً.

سألته السؤال الذي كان يلح عليّ:

«هل يقرأ أفكارنا الآن؟»

هز شريف رأسه بسرعة.

«لا. يجب أن يكون الإنسان على مسافة متر تقريباً منه حتى يستطيع قراءة أفكاره. قدرته على التخاطر تتلاشى بعد نصف قطر معين. هو لا يسمعنا الآن... ولا يعرف أنني أفكر في...»

توقف فجأة. ابتلع بقية الجملة. لكنني فهمت.

نهضت واقتربت منه. وضعت يدي على كتفه.

قلت بهدوء وثبات:

«سأبقى معك. لن أتركك وحدك في هذا.»

نظر إليّ طويلاً. ثم أومأ برأسه مرة واحدة، وكأن قراراً ثقيلاً قد حُسم بيننا.

خارج النافذة كانت أشجار البلوط تتحرك في نسيم خفيف، والفطريات البنية على الحشائش تبدو أكثر قتامة في الضوء المتلاشي. المختبر الذي كان قبل ساعات مجرد مكان للعلم... لم يعد آمناً.

وشيء ما تحت العدسة... كان ينتظر الخطوة التالية.

الفصل السادس

حوار عبر العدسة

في الصباح التالي كان الضوء مختلفاً.

الشمس دخلت من النافذة الواسعة بزوايا حادة، فرسمت خطوطاً ذهبية على المنضدة الطويلة وعلى صف المجاهر. لكن الغرفة بدت أضيق مما كانت عليه في الليلة السابقة، والرائحة الرطبة أكثر كثافة.

شريف لم ينم. عرفت ذلك من عينيه ومن الطريقة التي كان يمسح بها جبينه كل بضع دقائق. جلسنا أمام المجهر الإلكتروني الثالث، على مسافة متر ونصف تقريباً، كما نصحني. قال إن هذه المسافة كافية حتى لا يستطيع الكائن قراءة أفكارنا بوضوح كامل.

اقتربنا معاً ببطء.

انحنى شريف أولاً ونظر في العدسة، ثم تنحى لي. وضعت عيني على العدسة العينية وعدّلت التركيز.

كان هناك.

في وسط السائل الوردي، داخل صدفته الشفافة، مستلقي على ظهره كما تركناه. عيناه ذات الشقوق الطولية مفتوحتان. يبدو أنه كان ينتظر.

ثم جاءت الموجات.

هذه المرة كانت أقوى وأوضح. لم تكن كلمات منفصلة، بل تدفقاً كاملاً من الأفكار، كماء ساخن يصب مباشرة داخل الدماغ. شعرت بحرارة خفيفة خلف عيني، ثم امتدت إلى صدغيّ.

«أنتما معاً الآن... حسناً.»

الصوت – إن جاز تسميته صوتاً – كان هادئاً، خالياً من العجلة، ومشحوناً بشيء يشبه الفضول البارد.

شريف همس بجانبي دون أن يرفع رأسه عن المجهر:

«اسأله... عن كوكبه.»

ركزت ذهني قدر استطاعتي، ووجهت السؤال داخلياً:

«من أين أتيت؟ لماذا أنت هنا؟»

التدفق جاء فوراً، أكثر تفصيلاً هذه المرة:

«أتيكا... كوكب صغير جداً بمقاييسكم. تدور حوله إشعاعات كثيفة وطاقات هائلة. حضارتنا أقدم من حضارتكم بملايين الدورات. نحن لا نبني مدناً من حجر ومعدن. نحن نعيش داخل السوائل والطاقة. أجسامنا نفسها أدوات. سفننا دقيقة لأن الكون نفسه دقيق في مستوياته الحقيقية.»

شعرت أن الأفكار تتدفق أسرع مما أستطيع استيعابه. اضطررت إلى إبعاد عيني عن العدسة لحظة، فشعرت بصداع خفيف ينبض خلف جبهتي.

عاد شريف ينظر، ثم همس:

«اسأله لماذا اختار الأرض.»

وجهت السؤال.

الرد جاء أبطأ هذه المرة، وكأنه يختار كلماته بعناية:

«أنتم... مثيرون للاهتمام. تملكون وعياً، لكنكم تستخدمونه بطريقة بدائية. تحلون نزاعاتكم بالإبادة الجماعية. تسمون ذلك حروباً. عندنا هذا سلوك الحيوانات غير العاقلة. إنجازاتكم العلمية... مقبولة. لكن حياتكم الاجتماعية أقل تطوراً من مستعمرات الحشرات عندكم. جئت لأراقب. ولأقيس.»

شعرت بغضب خفيف يختلط بالخوف. رفعت رأسي ونظرت إلى شريف. كان وجهه متصلباً.

همس لي:

«يحتقرنا.»

أومأت.

عدت إلى العدسة. هذه المرة حاولت أن أكون أكثر حدة في تركيزي:

«هل أنت وحدك؟ هل سيأتي آخرون؟»

الصمت داخل ذهني طال ثانية أو اثنتين. ثم جاء الرد، بارداً ومباشراً:

«الآخرون يراقبون من بعيد. أنا المستكشف. إذا لزم الأمر... يرسلون غيري. الوقت عندنا مختلف. ما تعتبرونه سنوات طويلة... ليس إلا لحظة قصيرة.»

أبعدت وجهي عن المجهر فجأة. الصداع أصبح أقوى. شريف أمسك بذراعي وأبعدني خطوة إلى الوراء.

قال بصوت منخفض:

«كفى لهذا اليوم.»

جلست على الكرسي، أمسح عرقاً بارداً عن رقبتي. شريف بقي واقفاً ينظر إلى المجهر من بعيد.

بعد لحظات قال دون أن يلتفت إليّ:

«هل شعرت به؟»

«بماذا؟»

«أنه يعرف أكثر مما يقول. أنه يقرأ ما خلف الأسئلة... لا الأسئلة نفسها فقط.»

نظرت إلى العدسة السوداء اللامع. شعرت أن شيئاً ما خلفها يبتسم بطريقة لا تحتاج إلى فم.

قلت بهدوء:

«نعم... شعرت.»

وخارج النافذة كانت أشجار البلوط ساكنة تماماً، كأن المكان كله يحبس أنفاسه.

الفصل السابع

تجارب صغيرة

في اليوم الثالث بعد وصولي بدأ شريف التجارب.

لم تكن تجارب كبيرة أو خطرة. قال لي إنه يريد فقط أن يفهم حدود الكائن... أو ربما حدود صبره. أحضر مصباحاً صغيرًا ذا ضوء أبيض مركز، ومولداً ضعيفاً لمجال مغناطيسي، وشريحة تسخين دقيقة يمكن التحكم في حرارتها بدرجة واحدة في كل مرة.

وقفنا معاً على مسافة متر وربع من المجهر. اقترب شريف أولاً، ونظر في العدسة، ثم بدأ.

الضوء أولاً.

سلّط الشعاع الأبيض برفق على الشريحة. داخل العدسة رأيت الكائن يتحرك قليلاً داخل صدفته، ثم يستقر. الموجات جاءت هادئة:

«ضوء... ضعيف. لا يؤذي.»

شريف دوّن الملاحظة في دفتره القديم بخط مرتجف قليلاً. ثم جرب المجال المغناطيسي. الكائن لم يتحرك هذه المرة، لكن التدفق الفكري جاء أسرع:

«مجال... مألوف. عندنا أقوى منه بكثير.»

أما الحرارة فكانت مختلفة.

رفع شريف درجة الشريحة نصف درجة فقط. داخل السائل الوردي رأيت الصدفة الشفافة تهتز اهتزازة خفيفة. ثم جاءت الموجات، هذه المرة أقل هدوءاً:

«حرارة... مقبولة حتى الآن. لا ترفعها أكثر.»

شريف توقف. نظر إليّ من فوق نظارته السميكة. عيناه كانتا محمرتين، ويبدو أنه يعاني صداعاً منذ الصباح.

همس لي:

«يتعاون... حتى الآن.»

جرفنا ساعة كاملة في تجارب متقطعة. الكائن كان يجيب، وأحياناً يصحح ملاحظات شريف بدقة علمية مدهشة. بدا الأمر في لحظات وكأنه حوار بين عالمين من مستويين مختلفين تماماً.

ثم تغير كل شيء فجأة.

حاول شريف أن يرفع الحرارة درجة واحدة إضافية. لم يكد يلمس المنظم حتى جاءت الموجات قوية وحادة، كأنها صفعة داخل الدماغ:

«توقف. أنت تفكر في شيء آخر. أنت تختبر حدود قدرتي على التحمل... لا حدود جسدي فقط.»

أبعد شريف يده بسرعة كمن لُسع. وجهه شحب أكثر. التفت إليّ وقال بصوت مبحوح:

«قرأ نيتي... قبل أن أفعل.»

جلسنا بعيداً عن المنضدة. الصداع الذي كان يعانيه شريف بدا الآن أشد. راح يضغط على صدغيه بأصابعه.

قال بعد صمت طويل:

«منذ ليلتين وأنا أحلم به. أرى صدفته الشفافة تكبر حتى تملأ الغرفة، وأسمعه يتحدث داخل رأسي حتى بعد أن أبتعد عن المجهر. هذا الصباح... لحظة استيقظت، ظننت للحظة أنني أنا الذي داخل الشريحة وهو الذي ينظر إليّ.»

نظرت إليه بقلق.

«هل تشعر أنه يؤثر عليك؟»

هز رأسه ببطء، ثم رفع عينيه إليّ:

«لا أعرف إن كان يفعل ذلك عمداً... أو أن مجرد وجوده بهذا القرب يترك أثراً.»

عدنا إلى الحديث مع الكائن بعد ساعة. هذه المرة كان الحوار أطول وأكثر فلسفية.

سألته عن الحرية، عن حق المراقبة، عن معنى أن تأتي حضارة إلى أخرى دون إذن.

الرد جاء بارداً ومباشراً:

«أنتم تراقبون الحشرات تحت مجاهركم منذ قرون. هل طلبتم إذنها؟ نحن نفعل الشيء نفسه... لكن بمستوى أعلى. الفرق الوحيد أن الحشرات لا تعرف أنها تُراقب. أنتم تعرفون الآن. هذا يجعل الأمر أكثر إثارة للاهتمام... وأكثر خطورة عليكم.»

شريف كان يكتب بسرعة، ثم توقف فجأة ونظر إلى الصفحة. خطه كان قد أصبح غير منتظم في السطور الأخيرة.

همس لي دون أن يرفع رأسه:

«أشعر أن شيئاً ما يتسرب. أفكاره... تختلط بأفكاري أحياناً.»

خارج النافذة كانت الظلال تتحرك مع حركة الشمس. الفطريات البنية على الحشائش بدت أقرب إلى السور مما أتذكرها في اليوم السابق.

وأنا أنظر إلى شريف وهو يضغط على صدغيه مرة أخرى، أدركت أن التجارب الصغيرة لم تعد صغيرة.

وأن شيئاً ما بدأ يتغير... داخل الغرفة، وداخله.

الفصل الثامن

حوادث في الجوار

في اليوم الرابع وصلت الأخبار.

كنت أقف قرب النافذة حين سمعت صوت دراجة نارية يتوقف خارج السور الأصفر. بعد دقائق جاء طرق خفيف على الباب. فتح شريف، فظهر رجل في الأربعينيات يرتدي زيّاً شبه رسمي، ملامحه متجهمة تحت قبعة باهتة.

قال دون مقدمة:

«الدكتور شريف فايز؟ أنا الملازم حسين من مركز شرطة المقطم. نحتاج إلى بضع دقائق من وقتك.»

دخلت خلف شريف إلى الممر. الرجل نظر إليّ نظرة سريعة ثم تجاهلني. أخرج دفتر ملاحظات صغيراً.

«في الأيام الثلاثة الماضية... حدثت أشياء غريبة في المنطقة. ماعز نافق في مزرعة على بعد كيلومتر واحد، بلا علامات مرض أو جرح. شجرتا تين ذبلتا فجأة في ليلة واحدة رغم أن التربة رطبة. وفي القرية الصغيرة غرب التل... أكثر من عشرين شخصاً يشكون من صداع حاد ودوخة بدأت أمس فجأة وانتهت اليوم.»

شريف وقف جامداً. وجهه لم يتحرك، لكنني رأيت أطراف أصابعه ترتجف خلف ظهره.

قال بصوت هادئ جداً:

«وما علاقة ذلك بمختبري؟»

الملازم هز كتفيه.

«الجيران يقولون إنك تجري تجارب غريبة منذ أسبوع. أضواء في الليل، روائح غريبة، وأنك لا تستقبل أحداً. نحن نحقق فقط. هل لديك أي تفسير علمي؟»

شريف ابتسم ابتسامة قصيرة باردة.

«أنا أعمل على بكتيريا صناعية. لا أكثر. إذا كان هناك تلوث أو شيء مشابه... فسأتعاون مع أي فحص.»

الملازم دوّن شيئاً، ثم نظر إليّ مرة أخرى.

«وأنت؟»

قلت:

«صديق. جئت لزيارته.»

خرج الرجل بعد ربع ساعة، تاركاً خلفه شعوراً ثقيلاً في الهواء. أغلقت الباب وعدت إلى الغرفة الكبيرة. شريف كان يقف أمام المجهر، ظهره إليّ.

قلت بهدوء:

«هل فعل شيئاً؟»

لم يجب فوراً. ثم قال بصوت منخفض:

«لا أعرف.»

خرجت بنفسي بعد ساعة.

سرت في الممر الضيق بين أشجار البلوط، ثم نزلت الطريق المتعرج نحو القرية الصغيرة. الهواء كان جافاً ودافئاً. في الحقول المجاورة رأيت بقعة بنية من العشب المحترق بشكل دائري منتظم، كأنها لمستها نار من الأعلى دون أن تترك رماداً.

في القرية جلست في مقهى صغير من الطوب اللبن. الرجل العجوز الذي قدم لي الشاي قال وهو يسكب:

«الصداع جاء فجأة بعد العصر. كأن شيئاً ضغط على رؤوسنا من الداخل. الأطفال بكوا. ثم راح كما جاء.»

امرأة تجلس في الزاوية أضافت بصوت خافت:

«الماعز... وجدناه منتفخ العينين، فمه مفتوح كأنه صرخ حتى مات. ولا جرح واحد.»

عدت إلى المختبر قبل الغروب. شريف كان جالساً على الكرسي قرب النافذة، رأسه بين يديه.

قلت وأنا أغلق الباب خلفي:

«هناك دائرة محترقة في الحقل. وصداع جماعي. وماعز نفق بطريقة غريبة.»

رفع رأسه. عيناه كانتا محمرتين أكثر من أي وقت مضى.

قال بعد صمت طويل:

«قبل يومين... بعد أن قتل المهندس شوكت... فكرت للحظة أن أختبر مدى الموجة. فقط للحظة. وجهتها في اتجاه فارغ... أو هكذا ظننت.»

شعرت بالدم يتجمد في عروقي.

«أنت أطلقتها؟»

هز رأسه ببطء.

«لا. هو الذي... شعر بنيتي. وأكملها بنفسه. قال لي بعد ذلك: "أنت أردت أن ترى. فأريتك".»

جلست ببطء على الكرسي المقابل. خارج النافذة كانت الفطريات البنية على الحشائش تبدو أقرب مرة أخرى، وكأنها زحفت بضعة سنتيمترات خلال ساعات النهار.

وشريف كان يضغط على صدغيه بقوة، كمن يحاول إخراج شيء ما من داخل رأسه.

الفصل التاسع

الظلال داخل العقل

في الليلة الخامسة بدأت الهمسات.

كنت مستلقياً على السرير الضيق في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمختبر، بعيداً عن المنضدة بما يكفي حسب تقدير شريف. الظلام كان كثيفاً، وصوت حفيف أوراق البلوط يصل خافتاً من الخارج. ثم سمعتها.

ليست كلمات واضحة في البداية. مجرد همس بطيء، كصوت ماء يتحرك داخل أذنٍ مغلقة. حاولت أن أتجاهله. قلبت على جانبي. أغمضت عيني بقوة. لكن الهمس أصبح أوضح قليلاً، واقترب من شكل كلمات:

«... لست بعيداً بما يكفي...»

نهضت جالساً. قلبي يدق بسرعة. الغرفة فارغة. الباب مغلق. لا أحد.

خرجت إلى الغرفة الكبيرة. شريف كان مستيقظاً، جالساً أمام النافذة في الظلام، ينظر إلى الخارج. لم يلتفت حين اقتربت.

قال بصوت أجش:

«أنت أيضاً سمعته.»

لم يكن سؤالاً.

جلست بجانبه. ضوء القمر كان يرسم خطوطاً باهتة على الأرضية. بعد صمت طويل قال شريف:

«في البداية كنت أظنه صدًى. بقايا التخاطر تبقى في الدماغ ساعات بعد الابتعاد. لكن الليلة... الليلة سمعتُه وهو يفكر داخل رأسي. أفكاره تختلط بأفكاري. لحظة واحدة ظننت أنني أرى المختبر من داخل الشريحة... من خلال عينيه.»

التفت إليّ. في الضوء الخافت بدت عيناه غائرتين أكثر.

«أخشى أنني أفقد الحدود. بيني وبينه.»

قلت بهدوء، رغم الخوف الذي كان يعقد حلقي:

«إذن يجب أن نقرر. الآن.»

نظر إليّ طويلاً.

«نقرر ماذا؟»

«هل نقتله. أم نفاوضه. أم نخبر أحداً.»

ضحك شريف ضحكة قصيرة يابسة.

«نخبر من؟ الشرطة التي جاءت أمس؟ سيظنوننا مجنونين. أو يصادرون المختبر ويسلمونه لجهة أخرى... ثم ماذا؟ يفتحون الشريحة في مختبر حكومي ويموتون قبل أن يفهموا ما أمامهم.»

صمت قليلاً ثم أضاف:

«التفاوض؟ هو لا يرى فينا ندّاً. نحن حيوانات أليفة مثيرة للاهتمام. في أحسن الأحوال.»

قلت:

«إذن القتل.»

شريف أغمض عينيه لحظة. حين فتحهما كان فيهما شيء جديد... تصميم متعب.

«فكرت في ذلك منذ اليوم الثاني. أحضرت جهاز ليزر... أكسيد الكربون. دقيق. يمكنه صهر الشريحة في ثوانٍ. لكن...»

توقف.

«لكنه يقرأ النية قبل أن أقترب لمسافة متر. إذا شك... سيتصرف قبلي.»

نظرت نحو المجهر الإلكتروني في نهاية المنضدة. في الظلام كانت عدسته السوداء تلمع لمعاناً خافتاً كعين مفتوحة.

همس شريف فجأة:

«السفينة... ما زالت هنا. في مكان ما داخل هذا المختبر. قال لي إنها صغيرة جداً لدرجة أنها تستطيع المرور عبر الأنسجة الحية دون أن تُحس. لو أراد... يستطيع أن ينتقل.»

شعرت بقشعريرة باردة تسري من قفاي إلى أسفل ظهري.

«إلى أين؟»

شريف لم يجب فوراً. ثم قال بصوت منخفض جداً:

«إلى أي مكان... أو أي جسد.»

الهمس داخل رأسي عاد فجأة، أوضح هذه المرة، وكأنه يبتسم دون فم:

«أخيراً... بدأتما تفهمان.»

أمسكت بذراع شريف. كان يرتجف.

خارج النافذة تحركت أشجار البلوط في نسيم لم أشعر به داخل الغرفة. والفطريات البنية على الحشائش بدت في ضوء القمر كأنها تراقبنا... وتنتظر.

الفصل العاشر

القرار يتبلور

الليلة كانت طويلة جداً.

جلسنا في الغرفة الكبيرة والمصابيح مطفأة إلا من مصباح صغير أصفر فوق المنضدة البعيدة. شريف أخرج من خزانة معدنية في الزاوية جهازاً مستطيلاً داكن اللون، بحجم القلم تقريباً، ووضعه على الطاولة بيننا. ضوء أحمر صغير كان يومض على جانبه.

قال بصوت هادئ:

«ليزر أكسيد الكربون. مع منفث غاز ينطبق محوره على محور الأشعة. يمكنه صهر الشريحة... وكل ما عليها... في ثوانٍ معدودة.»

نظرت إلى الجهاز ثم إليه.

«وهل تظن أنه سيمنحنا هذه الثواني؟»

هز رأسه ببطء.

«لا. لذلك يجب أن أفكر في شيء آخر تماماً وأنا أقترب. أي شيء. حتى لا يقرأ النية.»

صمتنا. خارج النافذة كان الليل كثيفاً، وصوت الحشرات غائباً بشكل غريب.

ثم جاء التدفق.

هذه المرة لم أكن قريباً من المجهر. كنت على بعد أكثر من مترين. لكن الموجات وصلت واضحة وحارة، كأنها تخترق الجدران نفسها:

«قتله... غير ضروري.»

شعرت بالدم يتراجع عن وجهي. شريف رفع رأسه فجأة، مما يعني أنه سمع أيضاً.

التدفق استمر، أهدأ هذه المرة، وأكثر إقناعاً:

«البشرية... يمكن إصلاحها. أنتم لستم ميؤوساً منكم تماماً. فقط... تحتاجون إلى توجيه. إلى إزالة بعض العادات البدائية. الحروب. الاستهلاك الأعمى. الغطرسة. أنا لست هنا لأمسحكم. أنا هنا لأراقب... ولأقترح.»

شريف همس من بين أسنانه:

«يقترح... بعد أن قتل جاري.»

الرد جاء فوراً، بارداً:

«الجار كان مثالاً. درساً صغيراً. أنتم تفهمون بالأمثلة أكثر مما تفهمون بالكلمات.»

نهضت ومشيت نحو النافذة، محاولاً إبعاد الصوت من رأسي. لكن الموجات تبعثني:

«أنت... أكثر هدوءاً منه. أكثر قدرة على الاستماع. ابقَ. راقب معي. لا داعي لأن يموت أحد الليلة.»

التفت إلى شريف. كان يمسك الجهاز الليزري الآن بيده، ينظر إليه كمن ينظر إلى سلاح أخير.

قال بصوت منخفض جداً، لكنه حاسم:

«غداً عند الفجر. قبل أن يشتد الضوء. سأقترب. وأنت تبقى بعيداً. إذا نجحت... انتهى الأمر. إذا فشلت...»

لم يكمل. لم يكن بحاجة إلى إكمال.

عدت وجلست أمامه. وضعت يدي على يده التي تمسك الجهاز.

قلت:

«لن أبقى بعيداً. سأكون معك.»

نظر إليّ طويلاً في الضوء الأصفر الخافت. ثم أومأ مرة واحدة.

خارج المختبر كانت أشجار البلوط ساكنة تماماً. الفطريات على الحشائش لم تعد تبدو نباتات عادية. والمسافة بيننا وبين المجهر الإلكتروني الثالث... بدت فجأة أقصر مما هي عليه في الحقيقة.

الوقت كان ينفد.

والمختبر الذي جئت إليه قبل خمسة أيام... لم يعد مكاناً نستطيع الخروج منه بسهولة.

الفصل الحادي عشر

الفجر والليزر

السماء كانت ما زالت رمادية حين خرجنا من الغرفة الصغيرة.

الفجر لم يكتمل بعد. الهواء خارج المختبر كان بارداً ورطباً، يحمل رائحة التراب والأوراق المتعفنة. شريف كان يمسك الجهاز الليزري بيده اليمنى كمن يمسك بآخر أمل. لم يتكلم منذ أن نهضنا.

دخلنا الغرفة الكبيرة في صمت. المجهر الإلكتروني الثالث كان ينتظر في مكانه، عدسته السوداء لامعة في الضوء الخافت القادم من النافذة.

شريف توقف على بعد مترين تقريباً. أغمض عينيه. رأيت شفتيه تتحركان بلا صوت، كأنه يردد شيئاً داخلياً... أغنية قديمة، أو معادلة كيميائية، أو أي شيء يبعد النية الحقيقية عن سطح تفكيره.

همس لي دون أن يفتح عينيه:

«ابقَ خلف المنضدة. لا تقترب. وإذا حدث أي شيء... اهرب.»

أومأت. لم أكن أنوي الهروب، لكنني لم أجادل.

بدأ يقترب.

خطوة. ثم أخرى. بطيئة جداً. الجهاز في يده كان موجهاً نحو الشريحة، الإصبع على الزر. رأيت العرق يتصبب على جبينه رغم البرودة. أوردة رقبته نافرة.

وصل إلى مسافة متر وربع. ثم متر. ثم أقل.

في اللحظة التي مدّ فيها يده ليضبط زاوية الشعاع، جاءت الموجات.

قوية. حادة. كصفعة مباشرة داخل الدماغ:

«أعرفه... ما تنوي فعله.»

شريف تجمد. عيناه انفتحتا فجأة. وجهه امتلأ بالرعب الصريح.

ضغط على الزر.

شعاع رفيع أحمر مائل إلى البرتقالي انطلق من الجهاز نحو الشريحة الزجاجية. في الجزء من الثانية الذي استغرقه الشعاع ليقطع المسافة، رأيت داخل العدسة – من موقعي البعيد – شيئاً يتحرك بسرعة مذهلة.

الكائن لم يكن مستلقياً بعد.

الصدفة الشفافة تلألأت بلون مختلف، ثم اختفت الشريحة تحت وهج مفاجئ. الزجاج بدأ ينصهر فعلاً... لكن شيئاً ما كان قد غادرها قبل أن يكتمل الذوبان.

شريف صرخ.

ليس صرخة ألم جسدية فقط، بل صرخة من يدرك فجأة أنه تأخر لحظة واحدة قاتلة.

الجهاز سقط من يده على المنضدة. راح يتراجع إلى الخلف وهو يضغط بكفيه على خاصرته اليمنى، كمن طُعن من الداخل.

التدفق جاء هذه المرة من كل اتجاه، قوياً ومحتفلاً:

«متأخر... جداً.»

سقط شريف على ركبتيه. وجهه شاحب إلى درجة الشفافية، وعيناه تحدقان فيّ برعب لم أره فيه من قبل.

قال بصوت مكسور، وهو ما زال يضغط على جنبه:

«دخل... دخل إلى...»

لم يستطع إكمال الجملة.

لكنني فهمت.

الهواء في الغرفة دار فجأة كأنه سُحب من الرئتين. والمجهر الإلكتروني الثالث... كان فارغاً الآن.

والشيء الذي كان تحته... أصبح في مكان آخر.

الفصل الثاني عشر

الهروب إلى الجسد

ركعت بجانبه على الأرض الباردة.

شريف كان يضغط بكفيه على خاصرته اليمنى بقوة كافية ليترك أثر أظافره في جلده تحت الرداء. وجهه متقلص من الألم، والعرق يتصبب منه بغزارة رغم برودة الفجر.

قلت وأنا أحاول رفع رأسه:

«شريف... انظر إليّ. ماذا يحدث؟»

رفع عينيه بصعوبة. فيهما رعب صافٍ لم أعد أتعرف عليه.

قال بصوت مبحوح متقطع:

«في... كليتي. اليمنى. السفينة... وهو... دخلا.»

شعرت بالمعدة تنقبض. أمسكت بكتفيه.

«مستحيل. كيف...؟»

ابتسم ابتسامة مكسورة مليئة بالألم.

«صغيرة... أصغر من أن تُرى. تمر عبر الأنسجة... كأنها غير موجودة. تركها... معلقة هناك منذ أيام. بخيوط... دقيقة مشعة. والآن... عاد إليها.»

ثم جاء الصوت.

هذه المرة لم يكن يأتي من اتجاه المجهر. كان يأتي من داخل شريف نفسه، ومن داخل رأسي في الوقت ذاته. موجات أوضح وأقرب وأكثر احتفالاً:

«الآن أنا في مأمن. استمعت إلى كل شيء. كل خطة. كل كلمة همستم بها وأنتم تظنون أن المسافة تحميكم.»

شريف أرتعش بعنف بين يدي. أسنانه اصطكت.

الرد الداخلي استمر بهدوء مرعب:

«حاولتما قتلي. مفهوم. الغريزة الحيوانية. لكنني لست غبياً إلى هذه الدرجة. الشريحة كانت فخاً جميلاً... إلى أن اقتربتم أكثر من اللازم.»

حاولت أن أركز ذهني وأرد:

«اخرج منه. اخرج الآن.»

الضحك – إن جاز تسميته ضحكاً – جاء كحرق بطيء داخل الدماغ:

«ولماذا؟ الجسد البشري... مريح أكثر مما توقعت. دافئ. مليء بالموارد. والكلى... مكان هادئ نسبياً.»

شريف صرخ فجأة صرخة مكتومة، وانحنى إلى الأمام حتى لمس جبينه الأرض. يداه ما زالتا تضغطان على خاصرته كمن يحاول انتزاع شيء من لحمه.

قلت وأنا أرفع رأسه بقوة:

«قاومه. حاول أن ترفضه.»

نظر إليّ بعينين غائمتين.

«لا أستطيع... أشعر به. يتحرك. يتحدث من الداخل. أفكاره... أصبحت أقرب من أفكاري.»

نهضت وسحبته معي بصعوبة إلى الكرسي. جلس مترنحاً، يتنفس بصعوبة. لون وجهه كان يميل إلى الرمادي الآن.

خارج النافذة بدأ الضوء الرمادي يتحول ببطء إلى وردي باهت. الفجر يكتمل.

لكن داخل الغرفة كان الليل ما زال مقيماً.

والتدفق الأخير جاء هادئاً، شبه ودود، وهو ما جعله أكثر رعباً:

«لا تحاولا أي شيء متهور. الجسد الذي أسكنه الآن... هش بمقاييسكم. إذا أخطأتم... سنموت معاً. وهو... لا يريد أن يموت بعد.»

شريف رفع رأسه بصعوبة ونظر إليّ.

في عينيه كانت هناك رسالة صامتة واحدة:

لقد فشلنا.

والآن... هو في الداخل.

الفصل الثالث عشر

داخل النسيج

مرت الساعات ببطء ثقيل.

الشمس ارتفعت خارج النافذة، لكن الضوء داخل المختبر بدا باهتاً وغير طبيعي.
شريف كان جالساً على الكرسي، يميل إلى الجانب الأيمن كمن يحاول تخفيف وزن لا

يُرى. كل بضع دقائق كانت رجفة عنيفة تجتاحه من القدمين إلى الكتفين، فيعض على شفته حتى تكاد تنزف.

كنت أمسح العرق عن جبينه بقطعة قماش مبللة. جلده ساخن بشكل غير طبيعي في بعض المواضع، وبارد في مواضع أخرى.

قال بصوت ضعيف في إحدى اللحظات الصافية:

«أشعر به... يتمدد. ليس جسماً فقط. طاقة. يبني شيئاً.»

حاولت أن أفكر. الجراحة؟ مستحيلة هنا، وأي مشرط قد يثيره. الكهرباء؟ المجالات المغناطيسية؟ كل فكرة كانت تصطدم بالحقيقة نفسها: أي هجوم على الكائن هو هجوم على كلى شريف، وربما على قلبه أو دماغه في اللحظة التالية.

النداء الداخلي جاء فجأة، أوضح من أي مرة سابقة:

«أنت تفكر في إخراجي بالقوة. لا جدوى. أنا منسوج الآن مع أنسجته. الخيوط المشعة... أصبحت جزءاً منه.»

شريف أرتعش ورفع رأسه.

«يسمع حتى ما أفكر فيه أنا... من الداخل.»

التدفق استمر، هذه المرة موجهاً إليّ مباشرة:

«أقترح صفقة. أخرج بهدوء. أعود إلى سفينتي. أغادر هذا الكوكب. مقابل ضمان واحد فقط: أن لا يحاول أحدكما، أو أي بشري آخر، تتبع أثري أو مهاجمة من سيأتون بعدي.»

قلت بصوت عالٍ، وأنا أنظر إلى جسد شريف المنهار:

«ولماذا نثق بك؟ قتلت رجلاً. دمرت حيوانات. سببت ألماً جماعياً. والآن تحتجز صديقي رهينة.»

الصمت داخل رأسي طال ثانية. ثم جاء الرد بارداً كالمعدن:

«لأن البديل... أن أبقى. وأن أستخدم هذا الجسد حتى آخر طاقة فيه. وأنتم تعرفون ما يحدث حين تنفد الطاقة.»

شريف أمسك معصمي فجأة بقوة غير متوقعة من رجل في حالته.

قال بين أسنانه المطبقة:

«لا تساوم. لا تمنحه أي وعد. هو... يكذب.»

رجفة جديدة أقوى من السابق اجتاحته. هذه المرة فقد السيطرة على ذراعه اليسرى لثوانٍ. ارتفعت في الهواء بشكل لا إرادي، ثم سقطت مرتخية.

نظرت إلى وجهه. كان يتغير. الشحوب تحول إلى لون رمادي مزرق في الشفتين، والهالات حول عينيه أصبحت داكنة كالكدمات.

همس لي بصعوبة:

«الطاقة... تتجمع. أشعر بها في كل خلية. كأنها... تستعد.»

خارج النافذة تحركت أشجار البلوط فجأة رغم عدم وجود ريح. الفطريات على الحشائش بدت أكثر انتفاخاً ولمعاناً.

وأنا أمسك يد شريف الباردة المرتجفة، أدركت أن الصفقة لم تكن خياراً حقيقياً.

وأن شيئاً ما داخل جسده... كان يقترب من لحظة لا رجعة فيها.

الفصل الرابع عشر

الانهيار

لم نعد نحتمل البقاء داخل المختبر.

شريف كان يختنق. قال إن الجدران تقترب، وإن الهواء داخل الغرفة أصبح ثقيلاً كالضغط على الرئتين. ساعدته على النهوض. سار مترنحاً، يده اليمنى تضغط دائماً على خاصرته، وخطواته غير متوازنة كمن يمشي على سطح متحرك.

خرجنا إلى الحديقة.

أشعة الشمس كانت قوية الآن، حارة، تضرب التربة الجافة وأشجار البلوط. الفطريات البنية بدت منتفخة ولامعة بشكل غير طبيعي. سرنا بضع خطوات على الممر الضيق ثم توقف شريف فجأة.

رفع رأسه نحو السماء. عيناه مفتوحتان على اتساعهما، والفم مفتوح كأنما يحاول أن يصرخ دون صوت.

ثم بدأ.

أولاً رجفة عنيفة اجتاحت جسده كله من القدمين إلى فروة الرأس. يداه ارتفعتا في الهواء بشكل لا إرادي، والأصابع متشنجة. سمعت صوت عظامه وهي تصدر فرقعات خفيفة تحت الجلد.

التدفق الأخير جاء من داخله، قوياً ومحتفلاً ومتكلاً في الوقت ذاته:

«انتهى الوقت.»

انفجرت ألسنة طويلة من نار بلون الدم من صدره وظهره وكتفيه. لم تكن ناراً عادية. كانت تتحرك كأنها حية، تلتف حول جسده في دوامة متسارعة. الضوء أصبح وهجاً أبيض مائلاً إلى الأحمر، يؤلم العينين.

حاولت أن أقترب. الحرارة دفعني إلى الخلف كيد قوية. سقطت على ركبتي في التراب.

جسد شريف لم يعد يشبه جسداً بشرياً.

صار وعاءً من لهب مشرق، ثم شيئاً يشبه نجماً صغيراً متآكلاً يدور حول نفسه بسرعة جنونية. المجالات المشعة كانت تنطلق منه في كل الاتجاهات، تغشي البصر وتحرق الحشائش حولنا في دوائر متسعة.

ثم ارتفع.

انطلق جسده – أو ما تبقى منه – إلى الأعلى في شكل دوامة نارية دوّارة. تحول إلى مذنب من لهب وإشعاع، يترك خلفه أثراً لامعاً في الهواء الصافي. ارتفع أكثر فأكثر، حتى صار نقطة متوهجة في السماء الزرقاء، ثم تضاءل... وتضاءل... واختفى في عمق الكون.

الصمت الذي أعقب ذلك كان أثقل من أي صوت.

بقيت جاثياً على التراب. الحشائش حولي كانت محترقة في بقع سوداء. الهواء تفوح منه رائحة أوزون وغبار محترق. المختبر خلفى بدا صغيراً ومهجوراً فجأة.

رفعت رأسي نحو السماء الفارغة.

لم يكن هناك جسد.

لم يكن هناك رماد.

فقط الفراغ... وأنا.

الفصل الخامس عشر

الرماد والأسئلة

بقيت جالساً على التراب وقتاً لا أعرف مقداره.

الشمس ارتفعت أعلى، والبقع المحترقة في الحشائش كانت ما زالت تتصاعد منها خيوط رفيعة من دخان. رفعت يدي ونظرت إليهما. كانتا ترتعشان. نهضت بصعوبة. ساقاي تبدوان غريبتين، كأنهما لا تنتميان إليّ تماماً.

عدت إلى المختبر.

الباب كان مفتوحاً كما تركناه. الداخل بدا عادياً بشكل صادم: المجاهر في أماكنها، الأطباق، الأواني الزرقاء، الكرسيان. فقط الجهاز الليزري كان ملقيًا على المنضدة حيث سقط من يد شريف. الشريحة الزجاجية في المجهر الإلكتروني الثالث كانت متشوهة ومنصهرة جزئياً، فارغة.

فتشت كل ركن. الخزائن، الأدراج، حتى الأرضية تحت المنضدة. لم أجد شيئاً يدل على السفينة الدقيقة. لا أثر. لا خيط مشع. لا شيء.

في الدرج السفلي لمكتب شريف وجدت دفتراً قديماً بغلاف جلدي داكن. فتحته. الصفحات الأولى كانت ملاحظات علمية عادية عن مستعمرات بكتيرية. ثم تغير الخط تدريجياً، أصبح أسرع وأقل انتظاماً. في الصفحات الأخيرة كتب:

«اليوم الرابع. يقرأ أبعد مما قدرت. السفينة ليست في المختبر فقط... هي قادرة على الاختباء داخل الأنسجة. إذا شعرت بالخطر الحقيقي ستنتقل. أنا...»

الكلمة الأخيرة كانت غير مكتملة. القلم توقف فجأة، تاركاً خطاً مائلاً على الورق.

سمعت أصوات سيارات في الخارج.

بعد أقل من ساعة كان المكان مليئاً برجال الشرطة. الملازم حسين نفسه كان من بينهم. سألوني مراراً. أين الدكتور شريف فايز؟ لماذا الحديقة محترقة بهذه الطريقة؟ لماذا الشريحة منصهرة؟

روت لهم ما حدث. ببساطة. بدون مبالغة.

نظر إليّ بعضهم بشفقة، وبعضهم بشك واضح. أحدهم همس لزميله: «صدمة. ربما قتله وأخفى الجثة». لم أجادل. كنت أعلم أنهم لن يجدوا جثة.

أخذوني معهم.

قضيت ساعات في المركز. ثم أيام. وضعوني تحت المراقبة. سألوني عن حالتي النفسية. عن أي خلافات سابقة مع شريف. عن المواد التي كان يستخدمها في المختبر.

في النهاية أطلقوا سراحي.

لا جثة. لا دليل على جريمة. فقط رجل اختفى، وحديقة فيها بقع محترقة، وصديق يروي قصة لا تُصدق.

عدت إلى المختبر بعد أسبوع.

المكان كان كما تركته الشرطة: مغلقاً بالشمع الأحمر، لكنني كسرت الختم. دخلت. جلست على الكرسي نفسه الذي كان يجلس عليه شريف في لياليه الأخيرة.

فتحت الدفتر مرة أخرى. في الصفحة قبل الأخيرة وجدت جملة قصيرة مكتوبة بخط مختلف قليلاً، كأنه كتبها في عجلة:

«إذا نجح في المغادرة... سيرسل إشارة. الآخرون سيأتون.»

رفعت رأسي ونظرت إلى المجهر الإلكتروني الفارغ.

خارج النافذة كانت أشجار البلوط تتحرك في نسيم خفيف. الفطريات البنية على الحشائش بدت عادية الآن... أو هكذا أردت أن أصدق.

لكن في مكان ما خلف عيني، ما زلت أشعر ببقية خافتة من تلك الموجات الحارقة.

والسؤال الذي لم يغادرني منذ لحظة اختفائه كان واحداً فقط:

هل انتهى حقاً... أم أن الإشارة قد أُرسلت بالفعل؟

الفصل السادس عشر

التحقيق والرماد

الأيام التي تلت الحادثة كانت أطول من الليالي.

في مركز الشرطة بالمقطم جلست مرات لا تحصى أمام طاولة خشبية قديمة، والملازم حسين أو غيره من الضباط يطرحون الأسئلة نفسها بصيغ مختلفة. أين اختفى الدكتور شريف فايز؟ هل تشاجرتما؟ هل كانت هناك مواد كيميائية خطرة؟ هل تعاطى شيئاً؟ هل أنت نفسك تحت تأثير صدمة؟

روت لهم القصة كما حدثت. كل مرة. بدون حذف وبدون إضافة.

كانوا يدونون، ثم ينظرون إليّ بتلك النظرة التي تجمع بين الشفقة والشك. أحضروا طبيباً نفسياً في اليوم الثالث. جلس معي ساعة كاملة، يسأل عن أحلامي وعن علاقتي بشريف وعن أي تاريخ سابق لـ«هلوسات». في النهاية كتب في تقريره عبارة قرأتها لاحقاً خلسة: «صدمة حادة مع احتمالية اضطراب تكيفي. يُنصح بالمتابعة».

الجثة لم تُوجد.

الحديقة فحصها الخبراء. البقع المحترقة فُسرت على أنها «حريق محدود ناتج عن مواد مخبرية غير معروفة». الشريحة المنصهرة اعتبرت نتيجة لـ«سوء استخدام جهاز ليزر». أما اختفاء رجل كامل دون أثر... فبقي مفتوحاً في الملفات.

بعد أسبوعين أطلقوا سراحي.

لكنني لم أكن حراً تماماً. في القرية الصغيرة كنت أشعر بالعيون تتابعني. البقال الذي كنت أشتري منه الشاي أصبح يرد بجمل قصيرة جداً. الأطفال كانوا يتوقفون عن اللعب حين أمر. امرأة عجوز في المقهى همست لجارتها بصوت مرتفع بما يكفي ليصلني: «هذا الذي كان مع الدكتور... يقول إن صاحبه طار إلى السماء».

عدت إلى المختبر في الليلة الأولى بعد إخلاء سبيلي.

كسرت الختم الأحمر دون تردد. الداخل كان كما تركته الشرطة: فوضوي قليلاً، بعض الأدراج مفتوحة، الجهاز الليزري محجوزاً كدليل. جلست على الكرسي نفسه. الهواء ما زال يحمل رائحة خفيفة من الأوزون والغبار المحترق، رغم مرور الأيام.

لمست سطح المنضدة البارد. نظرت إلى المجهر الإلكتروني الثالث. العدسة السوداء كانت فارغة، لكنها بدت لي وكأنها ما زالت تحتفظ بشيء... ظل أو صدى.

خرجت إلى الحديقة. البقع السوداء في الحشائش كانت ما زالت واضحة. الفطريات البنية عادت تبدو عادية، لكنها نمت بشكل أسرع حول الحواف المحترقة، كأنها تتغذى على ما تبقى.

وقفت هناك طويلاً، أنظر إلى السماء التي ابتلعته.

في مكان ما داخل صدري كان هناك فراغ بحجم إنسان.

وفي مكان آخر... بقايا خافتة من تلك الموجات الحارقة، كجمر تحت الرماد، ترفض أن تنطفئ تماماً.

التحقيق الرسمي أغلق تقريباً.

أما التحقيق الحقيقي... فقد كان قد بدأ للتو داخلي.

الفصل السابع عشر

الميراث

بعد ثلاثة أسابيع من الحادثة جاءني محامٍ من القاهرة.

رجل نحيل يرتدي نظارة مستطيلة، يحمل حقيبة جلدية قديمة. جلس أمامي في غرفة المعيشة الصغيرة التي استأجرتها مؤقتاً في القرية، وفتح مظروفاً رسمياً.

قال بصوت هادئ مهني:

«الدكتور شريف فايز ترك وصية موثقة منذ عامين. أنت الوريث الوحيد لكل ممتلكاته المتعلقة بالمختبر: المبنى، الأجهزة، المواد، والملاحظات العلمية. هناك أيضاً مبلغ صغير في حساب بنكي مخصص لصيانة المكان.»

نظرت إلى الأوراق دون أن ألمسها فوراً. اسمي مكتوب بخط واضح. توقيع شريف في الأسفل، وتاريخ يعود إلى ما قبل ظهور الكائن بوقت طويل.

المحامي أضاف:

«كان يعتبرك أقرب الناس إليه. قال لي مرة في مكتبي: إذا حدث لي شيء، فهو الوحيد الذي سيفهم ما يجب فعله.»

بعد أن غادر، جلست طويلاً أنظر إلى المظروف.

ثم عدت إلى المختبر في الليلة نفسها.

كسرت الختم الجديد الذي وضعته الشرطة بعد زيارتهم الأخيرة. دخلت. هذه المرة لم أكن زائراً ولا مشتبهاً به. المكان... صار مسؤوليتي.

فتحت كل الأدراج والخزائن بشكل منهجي. في درج سفلي خلف صندوق أدوات قديم وجدت ثلاثة دفاتر إضافية بغلاف أسود، لم أكن قد رأيتها من قبل. الخط في الصفحات الأولى كان منتظماً وعلمياً. ثم بدأ يتغير مع اقتراب اليوم الذي وصل فيه الكائن.

قرأت طوال الليل.

شريف كان يوثق كل شيء: أول ظهور للكائن على الشريحة، الكلمات الأولى التي سمعها بالتخاطر، وصفه الدقيق للصدفة الشفافة والعيون الشقية، محاولاته الأولى للتواصل، ثم خوفه المتزايد. في إحدى الصفحات كتب:

«هو لا يراني ندّاً. يراني أداة مفيدة أو عقبة مؤقتة. الفرق بين الاثنين... يعتمد على سلوكي.»

وفي صفحة أخرى، بتاريخ اليوم الثالث:

«إذا نجحت في قتله، قد يأتي غيره. إذا فشلت، قد يستخدمني. في الحالتين... البشرية لم تعد وحدها في هذا المستوى من الوجود.»

أغلقت الدفتر الأخير مع شروق الشمس. رأسي كان يدور، لكن قراراً واضحاً كان قد تشكل.

سأبقى.

نظفت المختبر على مدى يومين. أعدت ترتيب الأجهزة. شغّلت بعض المجاهر البصرية أولاً، ثم بدأت في فحص الأجهزة الإلكترونية الأكثر تعقيداً. لم ألمس المجهر الإلكتروني الثالث بعد. تركته كما هو، عدسته فارغة ومنصهرة الجزئياً، كشاهد.

في اليوم الرابع جلست إلى المكتب وكتبت ثلاث رسائل قصيرة إلى علماء كنت أعرفهم من سنوات سابقة: واحد في الفيزياء النظرية، وآخر في علم الأحياء الفلكية، وثالثة في هندسة الطاقة. لم أذكر الكائن. فقط قلت إنني ورثت مختبر شريف فايز، وإن هناك ملاحظات مهمة تحتاج إلى عقول إضافية موثوقة.

لم أكن أعرف بعد إن كانوا سيصدقونني.

لكنني كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أحمل هذا الميراث وحدي إلى الأبد.

خارج النافذة كانت الفطريات البنية قد غطت معظم البقع المحترقة.

كأنها تحاول محو الأثر... أو الانتظار.

الفصل الثامن عشر

إشارات بعيدة

مرت ثلاثة أشهر.

المختبر عاد يعمل جزئياً. المجاهر البصرية كانت تُستخدم يومياً، وبعض أجهزة القياس أعيد تشغيلها. العالمان اللذان استجابا لرسائلي زاراني مرتين، قرأا المذكرات، وسمعا روايتي كاملة. أحدهما رفض التصديق في البداية، ثم جلس صامتاً ساعة كاملة بعد أن رأى الشريحة المنصهرة والبقع المحترقة التي لم تنمُ فيها الحشائش بشكل طبيعي بعد. الثاني قال فقط: «إذا كان ما تقوله صحيحاً... فنحن متأخرون».

ثم بدأت الإشارات.

أولاً التشويش.

في أواخر الشهر الثالث لاحظ فنيو الإذاعة المحلية في المنطقة تداخلاً غريباً على الموجات القصيرة. أصوات تشبه همساً معدنياً متقطعاً، تظهر في ساعات متأخرة من

الليل ثم تختفي. لم يتمكنوا من تحديد المصدر. بعض الهواة سجلوا مقاطع، وأرسل أحدهم نسخة إليّ بعد أن سمع أنني «أبحث في أمور غريبة».

استمعت إلى التسجيل في المختبر.

لمدة اثنتين وعشرين ثانية كان هناك شيء يشبه نبضاً منتظماً، ثم تشويش يشبه الرياح داخل سلك. لم يكن واضحاً. لكنه كان مألوفاً بطريقة جعلت جلد رأسي ينقبض.

بعد أسبوعين وصلني تقرير من زميل قديم في جامعة أوروبية: في مختبر لعلم الأحياء الدقيقة في سويسرا لاحظوا مستعمرات بكتيرية تتصرف بشكل غير معتاد لمدة ثلاثة أيام، ثم عادت طبيعية. وفي اليابان سجلت أجهزة رصد إشعاعي حساسة نبضة قصيرة جداً وغير مفسرة في طبقة الستراتوسفير.

ربما صدفة.

ربما لا.

أما الأحلام فكانت أكثر إقناعاً لي شخصياً.

كل بضعة ليالٍ كنت أرى الصدفة الشفافة. أحياناً من بعيد، كنجم صغير في ظلام. وأحياناً قريبة جداً حتى أرى العيون الشقية تنظر إليّ. وفي إحدى الليالي سمعت الموجات مرة أخرى، خافتة جداً كصدى قادم من مسافة هائلة:

«... وصلنا...»

استيقظت والعرق يبلل قميصي رغم برودة الغرفة.

جلست في تلك الليلة أمام المجهر الإلكتروني الثالث الفارغ. فكرت طويلاً.

هل أرسل الإشارة قبل أن يتلاشى؟

هل استخدم اللحظة الأخيرة من وجوده داخل جسد شريف ليبث شيئاً عبر الفضاء؟

وهل ما نسمعه الآن... هو الرد؟

بدأت أضع خططاً أولية.

طلبت من الفيزيائي الذي يزورني بانتظام أن يركز على طرق رصد التشوهات الطفيفة في الزمكان أو الإشعاعات غير التقليدية. بدأت أجمع كل ما يمكن عن النجوم النيوترونية وخصائص المادة فائقة الكثافة، وعن نظريات الثقوب السوداء والبيضاء كوسائل انتقال محتملة. رسمت مخططات بسيطة لدروع طاقة نظرية... رغم أنني كنت أعلم أنها ما زالت خيالاً علمياً أكثر منها واقعاً.

في إحدى الأمسيات وقفت في الحديقة أنظر إلى البقع التي كانت محترقة. الفطريات غطتها بالكامل تقريباً، وأصبحت أكثر كثافة من أي مكان آخر في المنطقة.

همست لنفسي، أو ربما لشيء آخر قد يكون يسمع:

«إذا كنتم قادمين... فسنكون مستعدين هذه المرة.»

الرياح حركت أوراق البلوط بلطف.

ولم يأتِ رد.

لكنني لم أعد أعتقد أن الصمت يعني الأمان.

الفصل التاسع عشر

الخاتمة المفتوحة

مرّ عام كامل.

المختبر لم يعد المكان المنعزل الذي عرفته في تلك الأيام الخمسة. الأجهزة الحديثة أُضيفت إلى القديمة. شاشات مراقبة صغيرة تعمل ليلاً نهاراً. ثلاثة علماء يأتون في أوقات متفرقة، يعملون بصمت، ويغادرون دون أن يتحدثوا كثيراً عما نفعله هنا. نحن لا ننشر شيئاً. لا نخبر أحداً. نكتفي بالرصد... والتحضير.

في مساء يوم صافٍ من أواخر الصيف وقفت وحدي في الحديقة.

أشجار البلوط كانت كما هي، أكبر قليلاً فقط. الفطريات البنية غطت الأرض حول السور بشكل كثيف ومنتظم، كأنها رسمت دائرة غير مكتملة حول المبنى. البقع التي احترقت في ذلك الفجر لم تعد مرئية، لكنني كنت أعرف مكانها بالضبط.

رفعت رأسي نحو السماء.

النجوم كانت واضحة. الكون كما وصفه شريف ذات يوم: أكبر مما نتصور... وأصغر أيضاً.

دخلت إلى الغرفة الكبيرة. المجهر الإلكتروني الثالث ما زال في مكانه. لم أصلحه. تركته فارغاً ومنصهراً جزئياً، شاهداً صامتاً. وضعت يدي على حافة المنضدة الباردة ونظرت إلى العدسة السوداء.

للحظة... حسبت أنني سمعت شيئاً.

همساً خافتاً جداً، أبعد من أي مسافة قستها من قبل، يكاد يكون وهماً:

«... نراك.»

رفعت رأسي فجأة. الغرفة فارغة. الشاشات تعمل بهدوء. لا إنذار. لا تشويش جديد على الأجهزة.

خرجت مرة أخرى إلى الهواء الطلق. وقفت في الممر الضيق بين الأشجار، حيث رأيت شريف لآخر مرة وهو يتحول إلى لهب ويصعد.

قلت بصوت عالٍ هذه المرة، موجهاً كلامي إلى الفراغ الذي ابتلعه:

«نحن نراك أيضاً.»

الرياح حركت الأوراق فوق رأسي. الفطريات على الأرض بدت في الضوء المتبقي من الغروب أكثر لمعاناً للحظة قصيرة... ثم عادت عادية.

عدت إلى داخل المختبر وأغلقت الباب خلفي.

على المكتب كانت خرائط ومخططات ودفاتر مفتوحة. عملنا لم يكن قد اكتمل. وربما لن يكتمل أبداً. لكننا لم نعد نعيش في الجهل.

الكون ما زال بحرًا أبدياً لا نهائياً.

وفي أعماقه... أو في أصغر زواياه... كان هناك من يعرف الآن أننا نعرف.

وأنا أطفئ المصباح الأخير قبل أن أخلد إلى النوم، سمحت لنفسي بابتسامة صغيرة متعبة.

القصة لم تنتهِ.

هي فقط... بدأت.

الفصل العشرون

الهمس المختلف

مرّت ثمانية أشهر على الليلة التي وقفت فيها في الحديقة وقلت للفراغ: «نحن نراك أيضاً».

المختبر كان يعمل الآن بنظام شبه يومي. الشاشات الصغيرة تضيء في الزوايا، وأجهزة الرصد تسجل كل تشويش، كل نبضة غير مفسرة، كل تغيّر طفيف في الخلفية الإشعاعية. العالمان اللذان قررا البقاء معي كانا يأتيان ثلاثة أيام في الأسبوع. نتحدث قليلاً، نعمل كثيراً، ونغادر الغرفة الكبيرة كل مساء ونحن نحمل السؤال نفسه دون أن ننطق به.

ثم بدأت الإشارات الجديدة.

في الليلة الأولى ظننتها صدًى متأخراً من الأحلام القديمة. كنت مستلقياً في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمختبر، والظلام كثيف، حين وصل الهمس.

لم يكن حاراً ولا حارقاً كما كانت موجات كائن أتيكا. كان أهدأ، أكثر انتظاماً، كنبض بطيء ومنضبط يأتي من مسافة بعيدة جداً. لم تكن هناك كلمات واضحة في البداية، فقط إحساس بوجود... شيء يحاول أن يُسمع دون أن يفرض نفسه.

جلست في الفراش. انتظرت.

الهمس تكرر مرة واحدة ثم اختفى.

في الليلة التالية عاد. أوضح قليلاً. هذه المرة شعرت باتجاه. ليس من داخل رأسي فقط، بل كأنه يأتي من الجهة الشمالية الشرقية للمختبر، من خلف أشجار البلوط.

في الليلة الثالثة سجلت التشويش على أحد أجهزة الرصد في اللحظة نفسها التي سمعت فيها الهمس. موجة قصيرة جداً، نظيفة، مختلفة تماماً عن النبضات العشوائية التي كنا نلتقطها منذ شهور.

جلست أمام الشاشة حتى الفجر. أعدت الاستماع إلى التسجيل مرات. لم يكن هناك صوت بشري ولا ضوضاء طبيعية. كان شيئاً... مصمماً.

Downstreamت في دفتري:

«إشارة جديدة. مختلفة. ليست من أتيكا. أقل عدوانية. أكثر... قصداً.»

على مدى أسبوعين تكررت الظاهرة سبع مرات. دائماً في ساعات ما بعد منتصف الليل. دائماً قصيرة. ودائماً مصحوبة بتشويش طفيف على الأجهزة. لم أخبر زميليّ بعد. أردت أن أتأكد أنني لم أبدأ أخيراً في اختراع أصوات من الوحدة والتعب.

في الليلة الخامسة عشرة جاء الهمس أوضح من أي مرة سابقة. هذه المرة وصلني منه ما يشبه كلمات، أو ظلال كلمات:

«... الذي بقي... الذي رأى...»

شعرت بقلبي يتسارع. نهضت وخرجت إلى الغرفة الكبيرة دون أن أشعل الضوء. وقفت أمام المجهر الإلكتروني الثالث الفارغ، كأنني أنتظر أن يجيبني أحد من داخله.

الصمت كان مطبقاً.

لكنني لأول مرة منذ عام كامل... لم أشعر أنني وحدي تماماً في هذا الكون.

كتبت في الدفتر قبل أن أعود إلى الفراش:

«شيء آخر يعرف أنني هنا.

شيء آخر... يتحدث.»

وخارج النافذة كانت أشجار البلوط ساكنة، والفطريات على الأرض تبدو في ضوء القمر كأنها تنتظر هي أيضاً.

الفصل الحادي والعشرون

الظهور الأول

في الليلة التاسعة عشرة بعد بدء الإشارات، خرجت إلى الحديقة بعد منتصف الليل.

الهواء كان بارداً وجافاً. القمر في الثلث الأخير، يلقي ضوءاً باهتاً على أشجار البلوط والفطريات الكثيفة حول السور. حملت معي جهاز التسجيل الصغير والمفكرة. الهمس جاء كما عادته في الساعة نفسها تقريباً، لكن هذه المرة كان أقوى، وأقرب.

وقفت في الممر الضيق بين الأشجار، أنصت.

ثم رأيت الحركة.

ليست ظلاً عادياً. تشوّه خفيف في الهواء على بعد خمسة عشر متراً تقريباً، قرب الحافة الشرقية للسور. كأن الضوء ينحني هناك قليلاً. التقطت أنفاسي وثبتّ مكاني. يدي اليمنى كانت قريبة من جيب معطفي حيث وضعت جهازاً صغيراً للطوارئ، رغم علمي أنه على الأرجح بلا فائدة.

التشوه توقف. ثم بدأ يتماسك.

الشكل ظهر تدريجياً من العدم، كأنه يتجمع من جزيئات الضوء والظل. أولاً القامة: طويلة قليلاً أكثر من متوسط النساء، رشيقة، واقفة بثبات غير بشري. ثم التفاصيل.

بشرتها كانت زرقاء.

ليس أزرق السماء ولا أزرق الماء. أزرق داكن مائل إلى الرمادي في بعض المواضع، ولامع في مواضع أخرى كأنه مغطى بطبقة رقيقة جداً من شيء حي. الضوء القمري ينزلق عليها بطريقة غريبة، فيجعلها تبدو أحياناً أقرب إلى البنفسجي الداكن. شعرها أسود وطويل، مربوط بطريقة بسيطة إلى الخلف. ملامح وجهها مألوفة إلى حدّ مقلق: عينان كبيرتان قليلاً أكثر من المعتاد، أنف مستقيم، فم هادئ. لكنها لم تكن بشرية تماماً. هناك شيء في تناسق الوجنتين وشكل الأذنين وفي الطريقة التي لا ترمش بها إلا نادراً.

وقفت ساكنة تماماً، تنظر إليّ.

لم أتحرك. لم أتكلم. حسبت نبضات قلبي لأُجبر نفسي على الهدوء.

بعد ما بدا كوقت طويل، فتحت فمها. الصوت جاء متأخراً نصف ثانية عن حركة الشفاه، هادئاً، واضحاً، وبلا لكنة تقريباً:

«أنت الذي رأى... أنت الذي بقي.»

الصوت لم يكن حاراً كموجات كائن أتيكا. كان بارداً ومنظماً، لكنه يحمل شيئاً يشبه الإرهاق القديم.

قلت بصوت منخفض، وأنا أراقب كل حركة فيها:

«من أنت؟»

لم تقترب. بقيت على مسافتها. بشرتها الزرقاء تلمع خفيفاً كلما تحركت ورقة شجر فوقها وغيّرت زاوية الضوء.

أجابت بعد صمت قصير:

«اسمي لا يُترجم بسهولة إلى لغتكم. يمكنكم أن تدعوني... ساريّا. جئت لأن الإشارة وصلت. ولأنك ما زلت هنا.»

شعرت بقشعريرة باردة تسري في ذراعيّ. الجهاز في جيبي بدا فجأة سخيفاً.

سألتها:

«إشارة من؟»

نظرت نحو المختبر خلفى، ثم عادت بعينيها الكبيرتين إليّ.

«من الذي تلاشى في سمائكم قبل عام. ومن الذين يتبعونه الآن.»

لم تبتسم. لم تهدد. فقط وقفت هناك، زرقاء تحت ضوء القمر، كأنها قطعة من ليل آخر سقطت بالخطأ على تلال المقطم.

وأنا أنظر إليها، أدركت أن الوحدة التي اعتدتها طوال الشهور الماضية... قد انتهت.
وأن شيئاً جديداً، أخطر وأكثر تعقيداً، قد بدأ للتو.

الفصل الثاني والعشرون
الحقيقة الأخرى

أدخلتها إلى المختبر بعد تردد طويل.

كانت تمشي خلفي بخطوات هادئة جداً، تكاد لا تُسمع. بشرتها الزرقاء تبدو داكنة أكثر تحت الضوء الأصفر للمصابيح. توقفت أمام المجهر الإلكتروني الثالث ونظرت إليه وقتاً طويلاً دون أن تلمسه. ثم التفتت إليّ.

قلت وأنا أشير إلى الكرسي:

«اجلسي إن أردت.»

جلست بظهر مستقيم، يداها على ركبتيها. حركتها كانت دقيقة أكثر من اللازم، كمن يتحكم في كل عضلة بوعي كامل.

صمتنا برهة. ثم قلت:

«تحدثي. لماذا أنت هنا؟»

رفعت عينيها الكبيرتين إليّ. اللون فيهما كان رمادياً مائلاً إلى الأزرق الفاتح، ويبدو أنه يتغير قليلاً مع الضوء.

قالت:

«شعبي يُدعى في لغتنا "الإيلاري". نحن لسنا من أتيكا، ولسنا من أرضكم. حضارتنا أقدم من حضارتكم ببضعة آلاف من دورات نجومنا، لكنها ليست بالأقدم ولا بالأقوى. كنا نعتقد أننا وحيدون في مستوى معين من الوجود... إلى أن وصل مستكشفو أتيكا.»

توقفت لحظة، كأنما تختار الكلمات بعناية.

«كائنات أتيكا مجهرية بمقاييسنا نحن أيضاً. لكن قوتها لا تعتمد على الحجم. هم ينتقلون عبر سفن دقيقة، ويتغلغلون في الأنسجة والكواكب، ويعيدون تشكيل ما يعتبرونه "غير مكتمل". شعبي واجههم منذ سبعة أجيال. خسرنا ثلاث مستعمرات كاملة. الباقون منا يعيشون في حالة دفاع دائم.»

شعرت بفمي يجف.

«والكائن الذي كان هنا؟»

«مستكشف متقدم. من النخبة. الإشارة التي بُثّت لحظة تلاشيه وصلت إلى أكثر من جهة... بما في ذلك إلى ما تبقى من أسطولنا. لهذا جئت. أنت الشاهد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد مواجهة مباشرة مع أحدهم، ولم يُمسَ عقله بالكامل.»

نهضت ومشيت بضع خطوات بعيداً عنها، ثم عدت.

«أنتِ تقولين إن شعبك في خطر. وإنكم تحتاجون حلفاء. لماذا نحن؟ نحن... بدائيون بمقاييسكم على الأرجح.»

للمرة الأولى ظهر على وجهها تعبير يشبه المرارة.

«لأنكم ما زلتم تقاومون. ولأن المختبر الذي تملكونه أصبح نقطة مراقبة مبكرة على هذا الكوكب. ولأن كائنات أتيكا بدأت ترسل موجة جديدة. ليست مستكشفاً واحداً هذه المرة. أعداداً أكبر. وأنتم لا تعرفون بعد.»

جلست مجدداً على الكرسي المقابل لها. بشرتها الزرقاء تلمع خفيفاً كلما تحركت.

سألتها السؤال الأهم:

«ماذا تريدين مني بالضبط؟»

أجابت بهدوء، دون مبالغة ولا توسل:

«تحالفاً حذراً. معلومات مقابل معلومات. أنتم تملكون الشاهد والمكان. نحن نملك خبرة سبعة أجيال في مواجهتهم، ونعرف بعض نقاط ضعف أغلفتهم الشفافة وطريقة انتقال سفنهم. لستُ منقذة. ولستُ هنا لأطلب منكم أن تموتوا من أجلنا. أنا هنا لأننا قد نموت جميعاً إذا بقينا كلٌ في جهته.»

نظرت إلى عينيها طويلاً. لم أجد فيها احتقار كائن أتيكا، ولا تعاطفاً بشرياً مألوفاً. فقط إرهاق كائن حارب طويلاً ويعرف أن الوقت ينفد.

قلت أخيراً:

«سأستمع. لكنني لن أثق بسهولة.»

أومأت برأسها مرة واحدة.

«هذا... منطقي.»

خارج النافذة كان الفجر يبدأ بالظهور. الضوء الرمادي دخل الغرفة وجعل لون بشرتها يبدو أكثر برودة.

وأنا أنظر إليها، أدركت أن الحرب التي ظننت أنها انتهت على تلال المقطم... كانت مجرد فصل أول.

الفصل الثالث والعشرون

الشك والتحفظ

بعد رحيلها في تلك الليلة لم أنم.

جلست حتى الصباح أمام الدفاتر المفتوحة، أعيد قراءة كل كلمة قالتها. بشرتها الزرقاء، صوتها الهادئ، الادعاء بأن شعبها يُباد ببطء، والعرض بالتحالف. كل شيء كان يبدو منطقياً... وخطيراً في الوقت نفسه.

في اليوم التالي انتظرت زميليّ.

الدكتور رامز، الفيزيائي، وصل أولاً. استمع إليّ بصمت وهو يشرب شايه البارد. عندما انتهيت، وضع الكوب جانباً ونظر إليّ فوق نظارته.

قال:

«كائنة زرقاء ظهرت لك في الحديقة وتطلب تحالفاً ضد المخلوقات المجهرية. هل سمعت نفسك؟»

قلت بهدوء:

«سمعت نفسي طوال الليل. وأنا لا أطلب منك أن تصدق فوراً. فقط أن تستمع وتراقب.»

الدكتورة ليلى، المتخصصة في الأحياء الفلكية، وصلت بعد ساعة. كان رد فعلها مختلفاً. جلست ساكنة وقتاً أطول، ثم قالت:

«الإشارات التي سجلناها في الشهور الماضية... بعضها كان نظيفاً ومنتظماً أكثر من اللازم. ربما لم تكن كلها من أتيكا.»

انقسم الرأي من تلك اللحظة.

رامز رفض أي تواصل مباشر. قال إننا نفتح الباب لتهديد ثانٍ ونحن لم ننتهِ من الأول. ليلى رأت أن تجاهل الأمر أخطر من الحذر. أما أنا فكنت عالقاً بينهما، أحمل في رأسي صورة البشرة الزرقاء تحت ضوء القمر وصوتها وهو يقول: «لستُ منقذة».

ساريّا لم تختفِ تماماً.

كانت تظهر كل بضعة أيام. أحياناً عند السور الشرقي، وأحياناً بعيداً بين الأشجار. لم تدخل المختبر مرة أخرى دون إذن. كانت تقف فقط، تنتظر، ثم تختفي إذا لم أخرج إليها. في إحدى الليالي اقتربت بما يكفي لأرى تفاصيل أدق: خطوطاً رفيعة جداً تشبه الوشم تتحرك ببطء تحت جلدها الأزرق، كأنها أنماط حية.

سألتها مرة عن سفينتها.

أجابت:

«ما زالت مخفية. كما أنتم تخفون ما تبقى من خوفكم. الثقة تُبنى ببطء... أو لا تُبنى أبداً.»

في الأسبوع الثالث وصلت تقارير جديدة عبر القنوات غير الرسمية التي فتحناها.

في مختبر بشمال أوروبا سُجلت مستعمرات مجهرية تتصرف بطريقة منسقة لساعات ثم تختفي. في جنوب شرق آسيا أُبلغ عن ثلاثة حالات لحيوانات نافقة بأعراض تشبه ما حدث للماعز قرب المقطم قبل عام. وفي مكان ما فوق المحيط الهادئ التقطت أقمار صناعية نبضة إشعاعية قصيرة جداً وغير مفسرة.

جلست مع رامز وليلى في تلك الليلة. الخريطة أمامنا مليئة بنقاط حمراء صغيرة.

رامز قال وهو يشير إليها:

«إما أن كائنتك تكذب وت□□ إدخالنا في حرب ليست حربنا... أو أنها صادقة والوضع أسوأ مما تصورنا.»

ليلى أضافت بهدوء:

«أو كلا الأمرين في الوقت نفسه.»

بعد أن غادرا، خرجت إلى الحديقة. كانت ساريّا واقفة تحت الشجرة الأقرب إلى السور، بشرتها الزرقاء تبدو داكنة في غياب القمر.

اقتربت منها دون أن أقول شيئاً في البداية. ثم قلت:

«إشارات أتيكا تزداد. في أكثر من قارة.»

أومأت ببطء.

«أعرف. لهذا لم أعد أملك رفاهية الانتظار طويلاً.»

نظرت إلى عينيها الرماديتين الزرقاوين.

«وأنا لم أعد أملك رفاهية الثقة السريعة.»

للمرة الأولى بدا على وجهها شيء يشبه الحزن القديم.

قالت:

«إذن نحن متساويان في هذا على الأقل.»

ثم ابتعدت بين الأشجار واختفت كأنها لم تكن.

وأنا عدت إلى المختبر وأغلقت الباب، كنت أعرف أن الوقت الذي نملكه للشك... بدأ ينفد.

الفصل الرابع والعشرون

شروط التحالف

اللقاء الحاسم تم في الليلة التالية داخل الغرفة الكبيرة.

ساريّا جلست هذه المرة على الكرسي المقابل لمكتبي، يداها مضمومتين فوق ركبتيها. الضوء الأصفر جعل لون بشرتها الزرقاء يبدو أعمق، والخطوط الرفيعة تحت جلدها تتحرك ببطء كأنها تتنفس. رامز وليلى كانا حاضرين أيضاً. رامز يقف متكئاً على المنضدة الجانبية، متجهماً. ليلى تجلس إلى جانبي، صامتة ومركزة.

قلت دون مقدمة:

«إذا كان لا بد من تعاون... فبشروط واضحة. لا غموض.»

أومأت ساريّا مرة واحدة.

«اسمع.»

أخرجت ورقة وبدأت أكتب وأنا أتكلم:

«أولاً: لا تدخلين هذا المختبر أو أي مكان مرتبط بنا دون إذن مسبق في كل مرة.

ثانياً: أي معلومة تقدمينها يجب أن تكون كاملة وغير منقوصة. أي إخفاء متعمد يُنهي الاتفاق فوراً.

ثالثاً: لا تتواصلين مع أي جهة أخرى على هذا الكوكب دون علمنا.

رابعاً: إذا ثبت أنكِ تمثلين تهديداً مباشراً أو غير مباشر لنا... نعتبر التحالف منتهياً ونتعامل معكِ على هذا الأساس.»

رفعت عينيها إليّ. لم تبدُ منزعجة.

قالت:

«مقبول. وأضيف شرطي أنا: أنتم لا تشاركون ما أعطيكم من معلومات عن شعبي أو عن تقنياتنا مع أي جهة حكومية أو عسكرية دون موافقتي. أنتم لستم الوحيدين الذين تخافون من الاستغلال.»

رامز ضحك ضحكة قصيرة يابسة.

«تضعين شروطاً وأنتِ من جاءت تطلب المساعدة؟»

نظرت إليه ساريّا بهدوء تام.

«أنا جئت أعرض صفقة بقاء. لستُ متسولة.»

ليلى تدخلت قبل أن يتصاعد التوتر:

«ماذا تقدمين بالضبط في المقابل؟»

ساريّا التفتت إليها.

«ثلاثة أشياء في المرحلة الأولى.
خرائط تقريبية لترددات الإشارات التي تستخدمها سفن أتيكا الدقيقة.
وصف لتركيب الأغلفة الشفافة التي تحميهم... ونقطة ضعف واحدة مؤكدة فيها.
وطريقة محدودة لرصد انتقالهم عبر الأنسجة الحية قبل أن يكتمل.»

صمتنا كلنا لحظة.

ثم قالت وهي تنظر إليّ مباشرة:

« tomorrow أبدأ. إذا وافقت.’

وافقت.

في الليلة التالية جاءت في الموعد. أحضرت معها جهازاً صغيراً جداً، داكن اللون، لا يشبه أي تقنية أعرفها. وضعته على المنضدة بجانب أحد أجهزة الرصد لدينا. بعد تعديلات دقيقة استمرت ساعة، ظهرت على الشاشة موجات جديدة لم نكن نستطيع التقاطها من قبل.

رامز كان يراقب الأرقام بوجه متصلب. فجأة تغيرت تعبيراته.

قال بصوت منخفض:

«هذه... ليست إشارة واحدة. هذه شبكة.»

ساريّا أومأت.

«الموجة الجديدة أكبر مما أخبرتكم في البداية. ما سجلتموه في أوروبا وآسيا ليس إلا أطرافاً. المركز... يقترب.»

شعرت ببرودة تسري في عمودي الفقري. نظرت إلى الشاشة حيث كانت النقاط تتكاثر ببطء.

ليلى همست:

«كم تبعد؟»

ساريّا أجابت بعد صمت قصير:

«بحساباتكم... أشهر قليلة. ربما أقل.»

أغلقت الدفتر أمامي. الشروط التي كتبتها بدت فجأة هشة جداً أمام ما يظهر على الشاشة.

لكن الاتفاق كان قد بدأ.

والتهديد الذي ظنناه بعيداً... أصبح يُقاس الآن بالأسابيع.

الفصل الخامس والعشرون

الظل يتسع

في الأسبوع الثالث بعد توقيع الاتفاق غير المكتوب، بدأت التقارير تصل متفرقة، ثم تكاثرت كبقع زيت على سطح ماء راكد.

أولاً من مختبر خاص في شمال إيطاليا: مستعمرات بكتيرية في أطباق بتري بدأت تتحرك بتنسيق غريب لمدة ست ساعات متواصلة، ثم ماتت كلها في اللحظة نفسها. الباحثون كتبوا في ملاحظاتهم عبارة واحدة مرتبكة: «كأنها تلقت أمراً جماعياً».

بعد يومين وصل تقرير مشابه من معهد أبحاث في كوريا الجنوبية. ثم من محطة رصد بيولوجي في الأرجنتين. وفي الليلة نفسها التي قرأت فيها هذه التقارير، التقطت أجهزة الرصد في المختبر نبضة قصيرة جداً، نظيفة، قادمة من اتجاه المحيط الهندي.

جلست مع رامز وليلى أمام الشاشة. النقاط الحمراء على الخريطة كانت قد تضاعفت.

رامز قال بصوت أجش:

«هذا ليس انتشاراً عشوائياً. هذا... انتشار محسوب.»

ليلى لم ترد. كانت تنظر إلى الأرقام كمن يقرأ حكماً بالإعدام.

في الليلة التالية جاءت ساريّا في الموعد المحدد. دخلت بهدوء، وجلست في المكان نفسه الذي اعتادت الجلوس فيه. بشرتها الزرقاء تبدو أغمق تحت الضوء الأصفر، والخطوط الرفيعة تحت جلدها تتحرك ببطء أكبر من المعتاد، كأنها تحمل قلقاً لا تفصح عنه.

عرضت عليها التقارير دون مقدمات.

قرأتها بسرعة مذهلة، ثم رفعت عينيها إليّ. اللون الرمادي المزرق فيهما بدا أعمق.

قالت:

«بدأت الموجة.»

صمتنا. صوت الأجهزة في الخلفية كان الوحيد الذي يملأ الغرفة.

ثم أضافت بصوت منخفض، أكثر حدة مما سمعتها من قبل:

«كائنات أتيكا لا تأتي للاستكشاف فقط. هذا ما أخبرتكم به في البداية... وكان ناقصاً. هم يقيسون أولاً. ثم يقررون. وإذا وجدوا عالماً "غير مكتمل" بحسب معاييرهم... يعيدون تشكيله.»

رفعت رأسي ببطء.

«ماذا تعني بإعادة التشكيل؟»

نظرت إلى النافذة لحظة، ثم عادت إليّ.

«يزيلون ما يرونه فائضاً أو شاذاً. الحضارات التي تحل نزاعاتها بالقتل الجماعي، أو التي تستهلك كوكبها بلا حساب، أو التي ترفض الاندماج في نظامهم... تُعاد صياغتها. أحياناً بتغيير البيولوجيا الأساسية للكائنات الذكية. أحياناً بمحو الذاكرة الجماعية. وأحياناً... بإفراغ الكوكب من وعيه الحالي وزرع شيء آخر.»

شعرت ببرودة تسري من قفاي إلى أسفل عمودي الفقري.

رامز، الذي كان يقف قرب المنضدة، قال بصوت مرتفع أكثر مما يجب:

«هذا جنون. كيف لكائن مجهري أن يفعل ذلك لكوكب بأكمله؟»

ساريّا نظرت إليه بهدوء تام.

«بالطريقة نفسها التي قتل بها المهندس شوكت فهمي. وبالطريقة نفسها التي أحرق بها حديقة هذا المختبر. القوة عندهم لا تعتمد على الحجم. تعتمد على كثافة الطاقة والقدرة على النفاذ إلى أصغر الوحدات الحية. هم لا يغزون المدن. يغزون الخلايا.»

ليلى همست:

«وكم مرة فعلوا ذلك من قبل؟»

ساريّا أجابت بعد صمت قصير:

«ثلاث مستعمرات من شعبنا. وعوالم أخرى لا نعرف عددها. بعضها اختفى من خرائطنا القديمة. بعضها ما زال موجوداً... لكن سكانه لم يعودوا هم أنفسهم.»

نهضت ومشيت نحو المجهر الإلكتروني الثالث. وضعت يدي على حافة المنضدة الباردة. العدسة السوداء المنصهرة جزئياً بدت لي فجأة كشاهد صامت على كل شيء.

قلت دون أن ألتفت:

«والمختبر هنا... لماذا يهمهم؟»

سمعت خطواتها الخفيفة تقترب ثم تتوقف على مسافة مترين.

«لأن الإشارة التي بُثّت من جسد شريف فايز جعلت هذا المكان معروفاً. ولأنكم الوحيدون على هذا الكوكب الذين رأوا أحدهم عن قرب وبقوا واعين. ولأن أي نقطة مراقبة مبكرة تصبح هدفاً... أو فرصة.»

التفت إليها. بشرتها الزرقاء تلمع خفيفاً كلما تحركت الخطوط تحتها.

«فرصة لماذا؟»

«للدفاع. أو للسقوط أولاً.»

جلسنا بعدها ساعة كاملة نراجع البيانات الجديدة. ساريّا أوضحت كيف يمكن تمييز إشارات السفن الدقيقة عن التشويش الطبيعي، وكيف أن بعض النبضات التي التقطناها في الأسابيع الماضية كانت في الواقع “مسحاً” أولياً للمواقع.

عندما انتهت، نظرت إليّ طويلاً وقالت:

«المختبر لم يعد مكان رصد فقط. إذا استمرت الموجة بهذا الإيقاع... سيصبح أحد مراكز الدفاع الأولى على هذا الكوكب. سواء أردتم ذلك أم لا.»

بعد أن غادرت، بقيت وحدي في الغرفة الكبيرة.

أطفأت معظم المصابيح. بقي ضوء أصفر خافت فوق المكتب. نظرت إلى الخريطة المليئة بالنقاط الحمراء، ثم إلى المجهر الفارغ، ثم إلى النافذة حيث كانت أشجار البلوط تتحرك في نسيم خفيف.

الفطريات البنية على الحشائش بدت في الضوء المتبقي أكثر كثافة من أي وقت مضى، كأنها رسمت دائرة أضيق حول المبنى.

همست لنفسي، أو ربما لشيء آخر قد يكون يسمع الآن:

«الظلال لم تعد بعيدة.»

ثم فتحت دفتراً جديداً، وكتبت في الصفحة الأولى بخط ثابت رغم الارتعاش الخفيف في أصابعي:

«اليوم الأول من الدفاع.»

خارج المختبر كان الليل عميقاً.

وفي مكان ما فوق المحيطات والقارات... كانت الموجة تتحرك.

الفصل السادس والعشرون

بداية الحرب الهادئة

مرّت ثلاثة أيام على الليلة التي كتبت فيها «اليوم الأول من الدفاع».

في تلك الأيام لم ينم أحد في المختبر نوماً متصلاً. رامز وليلى تناوبا على مراقبة الشاشات. ساريّا كانت تظهر كل مساء في الساعة نفسها، تدخل بهدوء، تراجع

البيانات، ثم تغادر دون أن تطيل البقاء. بشرتها الزرقاء بدت في الليالي الأخيرة أكثر شحوباً، والخطوط تحت جلدها أبطأ حركة، كأنها تحمل ثقلاً متزايداً.

في مساء اليوم الرابع وقفنا جميعاً أمام الشاشات الرئيسية.

الخريطة كانت قد امتلأت بنقاط حمراء جديدة. بعضها خافت، وبعضها أقوى. لكن واحدة منها... كانت مختلفة.

ظهرت فجأة في الزاوية الجنوبية الشرقية من الشاشة، فوق البحر الأحمر تقريباً. نبضة نظيفة، منتظمة، أقرب من أي شيء سجلناه من قبل. المسافة المقدّرة كانت أقل من ألف كيلومتر.

رامز همس:

«هذه... ليست مسحاً.»

ليلى أضافت بصوت خافت:

«هذه وصول.»

ساريّا كانت تقف إلى يساري. لم تتكلم فوراً. نظرت إلى النقطة المتوهجة طويلاً، ثم قالت بهدوء:

«سفينة متقدمة. من النخبة. أقرب مما توقعت.»

شعرت بقلبي يتسارع. وضعت يدي على حافة المنضدة الباردة لأتثبت.

قلت:

«كم من الوقت؟»

أجابت دون أن ترفع عينيها عن الشاشة:

«بحساباتكم... أيام. ربما أقل.»

صمتنا. صوت الأجهزة كان الوحيد الذي يملأ الغرفة الكبيرة. ضوء المصابيح الأصفر انعكس على العدسة المنصهرة للمجهر الإلكتروني الثالث، فبدا كعين مغلقة تنتظر أن تُفتح من جديد.

ساريّا التفتت إليّ أخيراً. عيناها الرماديتان الزرقاوان كانتا ثابتتين.

قالت:

«الآن لم يعد هناك متسع للشك أو التردد. إما أن نكون جاهزين... أو نصبح المثال التالي.»

نظرت إلى رامز وليلى. كلاهما أومأ بصمت. ثم نظرت إلى النافذة. أشجار البلوط كانت ساكنة تماماً هذه المرة. الفطريات البنية على الحشائش تلمع في الضوء المتبقي من الغروب كأنها عيون لا تُحصى.

اقتربت من الشاشة أكثر. النقطة الحمراء كانت تنبض ببطء منتظم، كقلب بعيد يقترب.

همست، لا أعرف إن كنت أخاطب ساريّا أو نفسي أو شيئاً أبعد من الاثنين:

«ما حدث تحت المجهر... لم يكن النهاية.»

ساريّا أجابت بصوت منخفض جداً، يكاد يكون همساً هو الآخر:

«كان الشرارة الأولى فقط.»

نظرت مرة أخيرة إلى النقطة المتوهجة على الشاشة، ثم إلى المجهر الفارغ في نهاية المنضدة، ثم إلى السماء التي بدأت تظلم خلف النافذة.

الكون ما زال أكبر مما نتصور... وأصغر أيضاً.

وهذه المرة... كنا نعرف.

الفصل السابع والعشرون

الصدمة الأولى

النبضة فوق البحر الأحمر لم تختفِ.

على العكس، ازدادت وضوحاً مع كل ساعة. في الليلة السادسة بعد ظهورها، أصبحت المسافة المقدّرة أقل من مئتي كيلومتر، والشارة على الشاشة تحولت من نقطة حمراء إلى دائرة نابضة بطيئة.

ساريّا وقفت أمام الأجهزة طوال الليل تقريباً. لم تجلس. بشرتها الزرقاء بدت شاحبة أكثر تحت الضوء الأصفر، والخطوط الرفيعة تحت جلدها تتحرك بسرعة غير معتادة، كأنها تستعد لشيء.

قالت فجأة، دون أن تلتفت:

«الآن.»

رامز كان يراجع المعادلات التي أعطتها لنا عن ترددات الأغلفة الشفافة. ليلى تضبط جهاز البث المحدود الذي بنيناه على عجل من معدات المختبر القديمة وتقنية صغيرة أحضرتها ساريّا.

قلت:

«هل نحن جاهزون؟»

ساريّا أجابت بصوت منخفض:

«لا. لكن الانتظار أسوأ.»

في الساعة الثالثة فجراً أطلقنا النبضة المضادة.

لم تكن انفجاراً ولا شعاعاً مرئياً. كانت موجة تشويش دقيقة جداً، مصممة لتمزق استقرار الأغلفة الشفافة للسفن الدقيقة في لحظة انتقالها النهائية. حسب كلام ساريّا، لو نجحت فستجبر السفينة على الظهور قبل الأوان أو الانهيار داخلياً.

انتظرنا.

مرت اثنتان وأربعون ثانية في صمت مطلق.

ثم ارتجّت الشاشات كلها في اللحظة نفسها. النقطة النابضة فوق البحر الأحمر توسعت فجأة، ثم انشطرت إلى شظايا متوهجة، ثم اختفت.

رامز صرخ بصوت مبحوح:

«انقطعت... انقطعت الإشارة!»

ليلى كانت تحدق في القراءات، يداها ترتعشان.

«الطاقة المتبقية... صفر. تدمرت.»

شعرت بساقيّ تضعفان. جلست على أقرب كرسي. الهواء في الغرفة بدا أخف فجأة، لكن الصداع الذي كنت أحمله منذ أيام لم يختفِ.

ساريّا لم تبتسم. لم تحتفل. فقط أغلقت عينيها لحظة قصيرة، ثم فتحتهما وقالت:

«سفينة واحدة. من الموجة الأولى. الباقي ما زال قادماً.»

نظرنا جميعاً إلى الخريطة. النقاط الحمراء الأخرى لم تختفِ. بعضها اقترب قليلاً.

صمت طويل ملأ الغرفة. ثم رامز وليلى انسحبا إلى غرفة المراقبة الجانبية ليراجعا التسجيلات. بقيت وحدي مع ساريّا.

كانت واقفة قرب النافذة الآن، ظهرها إليّ. ضوء الفجر الرمادي بدأ يتسرب، فجعل لون بشرتها يبدو أبرد وأعمق.

اقتربت منها دون أن أقرر ذلك بوعي. توقفت على بعد خطوتين.

قلت بصوت أجش:

«شكراً.»

التفتت ببطء. عيناها الرماديتان الزرقاوان ثبتتا عليّ. لم تكن فيهما فرحة، ولا ارتياح. فقط الإرهاق نفسه الذي رأيته منذ لقائنا الأول، مع شيء آخر... أقرب إلى الحذر من القرب.

مدّت يدها فجأة، ببطء شديد، ووضعت أصابعها على معصمي.

الجلد عندها لم يكن كجلد البشر. كان أملس بشكل غير طبيعي، ودافئاً بطريقة غريبة، كأن حرارة خفيفة تنبض تحته بإيقاع مختلف عن نبض قلبي. الخطوط الرفيعة تحت بشرتها تحركت لحظة لمسها لي، كأنها تستجيب.

شعرت بقشعريرة تسري في ذراعي كلها. لم أبتعد. ولم أقترب أكثر.

ساريّا قالت بصوت منخفض جداً، يكاد يضيع في صوت الأجهزة البعيدة:

«أنت ترتجف.»

«منذ أن رأيت ما تحت المجهر... وأنا أرتجف.»

ظلت أصابعها على معصمي ثوانٍ إضافية. لم تكن لمسة طمأنينة بشرية عادية. كانت أشبه بفحص، أو بتواصل أولي حذر، أو بشيء لا أملك له اسماً. ثم سحبت يدها ببطء، كأن الحركة نفسها تكلفها جهداً.

قالت:

«الغرابة لا تزول بالانتصار الجزئي. ولا باللمس.»

ابتعدت خطوة، ثم أضافت وهي تنظر إلى السماء التي تضيء تدريجياً:

«الموجة الأولى صدمت. لكن الظل ما زال يتسع. والذين يأتون بعد هذه السفينة... لن يكونوا بنفس السذاجة.»

خرجت من الغرفة بعد ذلك. سمعت صوت الباب يغلق بهدوء.

بقيت واقفاً مكاني، أحس بأثر أصابعها على معصمي كأنه ما زال موجوداً. الدفء الغريب لم يختفِ فوراً. امتزج بالخوف القديم، وبالوحدة التي حملتها منذ أن احترق شريف في الحديقة، وبالشعور بأن جسدي نفسه لم يعد ينتمي تماماً إلى العالم الذي أعرفه.

نظرت إلى الشاشة. النقطة فوق البحر الأحمر اختفت. لكن بقية النقاط كانت ما زالت هناك، تتحرك ببطء نحو اليابسة.

همست لنفسي:

«انتصار صغير... وظل أكبر.»

ثم جلست أمام الدفتر وفتحت صفحة جديدة.

الكتابة كانت مرتجفة في البداية، ثم ثبتت:

«دمرنا واحدة.

لكن الحرب الهادئة... لم تبدأ بعد.»

الفصل الثامن والعشرون

بقايا الدفء

في الليلة التالية لم تختفِ النقاط الحمراء.

بعضها ابتعد قليلاً، كأن السفن الدقيقة غيرت مسارها بعد تدمير الأولى. وبعضها الآخر اقترب ببطء أكثر حذراً. رامز قال إن التشويش الذي أطلقناه ربما أجبرها على إعادة الحساب. ليلى كانت أقل تفاؤلاً. قالت إن الكائنات التي تدير الموجة الآن تعرف أن هناك مقاومة على تلال المقطم.

ساريّا لم تظهر في الموعد المعتاد.

انتظرتها حتى منتصف الليل. ثم خرجت إلى الحديقة. الهواء كان بارداً وجافاً، والقمر في الثلث الأخير يلقي ضوءاً باهتاً على أشجار البلوط والفطريات الكثيفة. وقفت في الممر الضيق حيث رأيتها لأول مرة، وأنصت.

لم يأتِ همس. ولا تشوه في الهواء.

عدت إلى المختبر بعد ساعة. وجدتها جالسة أمام الشاشات، ظهرها مستقيم، يداها على ركبتيها. لم تلتفت حين دخلت.

قلت:

«تأخرتِ.»

أجابت دون أن تنظر إليّ:

«كنت أتحقق من شيء أبعد.»

جلست على الكرسي المقابل. المسافة بيننا كانت أقل من متر ونصف. ضوء الشاشات انعكس على بشرتها الزرقاء فجعل الخطوط تحتها تبدو كأنها تتحرك ببطء أعمق.

بعد صمت طويل قالت:

«السفينة التي دمرناها لم تكن مجرد مستكشف. كانت... اختباراً. أرادوا أن يروا إن كنتم قادرين على الرد، وإلى أي مدى.»

شعرت بالمعدة تنقبض.

«والنتيجة؟»

«أنكم خطر صغير... لكنه موجود. الآن سيتصرفون بحذر أكبر. أو بقسوة أكبر.»

صمتنا مجدداً. صوت الأجهزة كان خافتاً هذه الليلة، كأن المختبر نفسه يتنفس بصعوبة.

مددت يدي دون تفكير واضح، ووضعتها على المنضدة بيننا. بعد ثوانٍ، وضعت ساريّا أصابعها بجانب أصابعي، دون أن تلمسها في البداية. ثم اقتربت ببطء شديد حتى لامست أطراف أناملها أناملي.

الدفء الغريب عاد.

ليس كحرارة بشرية. كان نبضاً مختلفاً، أبطأ، ينتقل عبر الجلد كأنه يبحث عن إيقاع آخر. شعرت به يصعد في ذراعي، ثم يستقر خلف عينيّ حيث كانت بقايا الموجات الحارقة القديمة ما زالت ترقد كجمر تحت الرماد.

لم أسحب يدي. ولم أزدد اقتراباً.

ساريّا قالت بصوت منخفض جداً:

«أنت ما زلت تشعر به... أليس كذلك؟ أثر الذي دخل جسد صديقك.»

أومأت.

«كل ليلة. كأنه لم يغادر تماماً.»

ظلت أصابعها ملامسة لأصابعي. الخطوط تحت بشرتها تحركت باتجاه نقطة التماس، كأنها تحاول قراءة شيء أعمق من الجلد.

قالت:

«عند شعبي، اللمس الأول بعد معركة يكون محفوفاً بالخطر. الجسد يتذكر الرعب قبل أن يتذكر الأمان. وأنت... جسدك يتذكر أكثر من معظم من رأيت.»

رفعت عيني إليها. كانت تنظر إلى يديّ المتلامستين، لا إلى وجهي.

قلت بهدوء:

«هل هذا فحص... أم شيء آخر؟»

أجابت بعد صمت قصير:

«الاثنان. لا أعرف أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر بعد.»

ظللنا كذلك وقتاً لا أستطيع تحديده. الدفء الغريب امتزج بالخوف القديم، وبالوحدة التي كانت تملأ المختبر منذ احترق شريف، وبالشعور بأن حدودي أنا نفسي بدأت تتغير منذ أن وضعت عيني على العدسة لأول مرة.

ثم سحبت ساريّا يدها ببطء، كأن القرار نفسه مؤلم.

نهضت. وقفت لحظة قرب الباب، ثم قالت دون أن تلتفت:

«غداً قد تأتي إشارات أوضح. استعد. والدفء الذي تشعر به الآن... لا تثق به كثيراً. في الحروب الهادئة، حتى اللمس قد يكون فخاً.»

خرجت.

بقيت جالساً أمام الشاشات. أثر أصابعها على أناملي ما زال موجوداً، خافتاً وحاراً بطريقته الغريبة. نظرت إلى النقاط الحمراء على الخريطة. بعضها كان يقترب من جديد، أبطأ هذه المرة، وأكثر تنظيماً.

فتحت الدفتر وكتبت:

«دمرنا سفينة.

لكن شيئاً آخر بدأ يتسرب إلى الداخل.

وليس كله من أتيكا.»

خارج النافذة تحركت أوراق البلوط في نسيم لم أشعر به داخل الغرفة.

والفطريات على الحشائش بدت في ضوء القمر كأنها اقتربت خطوة إضافية نحو السور.

الفصل التاسع والعشرون

اقتراب الظل

في اليومين التاليين لم تعد النقاط على الشاشة تتحرك ببطء حذر فقط.

بعضها بدأ يقترب بوتيرة أوضح، كأنها اختبرت المسافة وأعادت حساب المخاطر. وفي فجر اليوم الثالث وصل تقرير عاجل من جهة غير رسمية في سيناء: قطعان ماعز

نافقة في منطقة نائية، بلا جروح، وعيونها منتفخة بنفس الطريقة التي وصفها أهل القرية قرب المقطم قبل أكثر من عام.

رامز وضع التقرير على الطاولة وقال بصوت أجش:

«هم يختبرون الأطراف الآن. يقتربون من اليابسة.»

ليلى لم تعلق. كانت تحدق في القراءات الجديدة، ويدها ترتجف قليلاً فوق لوحة المفاتيح.

ساريّا جاءت في الليلة نفسها متأخرة عن موعدها المعتاد. دخلت بهدوء، نظرت إلى الشاشات، ثم إلى التقرير، ثم جلست. بشرتها الزرقاء بدت داكنة أكثر هذه الليلة، والخطوط تحتها تتحرك بإيقاع متقطع كأنها تحمل أخباراً سيئة في جسدها نفسه.

قالت:

«الموجة الأولى لم تنتهِ. ما دمرناه كان رأس الحربة فقط. الآن يرسلون ما هو أصغر... وأكثر عدداً.»

شعرت بضيق في الصدر. نهضت ومشيت نحو النافذة. أشجار البلوط كانت ساكنة، لكن الفطريات على الحشائش بدت أقرب إلى السور مما كانت عليه في الليلة السابقة. كأنها زحفت سنتمترات إضافية في الظلام.

عندما التفت وجدت ساريّا واقفة خلفي على مسافة خطوة واحدة فقط. لم أسمع خطواتها.

قلت دون أن أبتعد:

«هل تشعرين بهم الآن؟»

أجابت بصوت منخفض:

«أشعر بالاقتراب. كضغط خفيف خلف العينين. وأنت... تشعر به أيضاً، أليس كذلك؟»

لم أنكر. الصداع القديم كان قد عاد منذ ساعات، خافتاً لكنه ثابت، كصدى بعيد للموجات التي سمعتها ذات ليلة تحت العدسة.

ساريًا رفعت يدها ببطء ووضعتها على جانبي رقبتي، حيث يلتقي الفك بالعنق. لم تكن لمسة فحص هذه المرة فقط. أصابعها استقرت هناك، والدفء الغريب تسرب مباشرة إلى الجلد، ثم صعد نحو قاعدة الجمجمة كأنه يبحث عن البقايا التي تركها كائن أتيكا داخل رأسي.

شعرت برجفة كاملة تسري في جسدي. لم أتحرك. ولم أطلب منها أن تتوقف.

قالت وهي تنظر في عيني من مسافة قريبة جداً:

«الجسد يتذكر ما مر به حتى لو حاول العقل النسيان. أنت تحمل أثرين الآن: أثر الذي دخل صديقك، وأثر اللمسات التي بيننا. الاثنان يختلطان.»

صوتها كان هادئاً، لكنه وصلني أعمق من المعتاد، كأنه يمر عبر الجلد لا عبر الأذنين فقط.

ظلت يدها على رقبتي ثوانٍ إضافية. الخطوط تحت بشرتها تحركت باتجاه أصابعها، ثم توقفت. شعرت بنبضها المختلف يتزامن للحظة قصيرة مع نبضي، ثم ينفصل عنه مجدداً.

سحبت يدها ببطء شديد، كأن الفصل نفسه يحتاج إلى إرادة.

قلت بصوت أجش:

«كل مرة تلمسينني... أشعر أن حداً آخر يضيع.»

نظرت إليّ طويلاً قبل أن تجيب:

«الحدود تضيع في الحروب الهادئة قبل أن تضيع في المعارك. وأنت منذ البداية كنت على حافة الحد.»

ابتعدت خطوة، ثم التفتت إلى الشاشات.

«غداً أو بعده قد نحتاج إلى إطلاق تشويش جديد. هذه المرة لن يكون ضد سفينة واحدة. سيكون ضد مجموعة أصغر... وأكثر انتشاراً. الثمن سيكون أعلى.»

خرجت بعد ذلك دون أن تضيف شيئاً.

بقيت واقفاً عند النافذة. مكان أصابعها على رقبتي ما زال دافئاً بطريقة غريبة، والرجفة لم تختفِ تماماً. نظرت إلى الفطريات في الضوء الخافت، ثم إلى السماء التي لا تظهر فيها نجوم كثيرة بسبب قرب المدينة.

همست لنفسي:

«الظل يقترب من الخارج... ومن الداخل أيضاً.»

ثم عدت إلى الدفتر وكتبت بخط أبطأ من المعتاد:

«النقاط تتحرك أسرع.

والدفء الذي تتركه لم يعد يزول بسهولة.

أخشى أنني بدأت أعتاد الاثنين.»

الفصل الثلاثون

الثمن

في الليلة الرابعة بعد التقرير القادم من سيناء، تحولت النقاط على الشاشة إلى شبكة.

لم تعد متفرقة. اقتربت من بعضها بعضاً فوق خليج السويس وشمال البحر الأحمر، ثم بدأت تتحرك كوحدة واحدة باتجاه اليابسة. رامز حسب السرعة وقال إن أمامنا أقل من تسع ساعات قبل أن تصل المجموعة الأولى إلى مسافة يمكنها منها إطلاق مسح دقيق أو أسوأ.

ساريّا كانت موجودة منذ المساء. لم تجلس. وقفت أمام الشاشات طوال الوقت، بشرتها الزرقاء شاحبة، والخطوط تحتها تتحرك بسرعة غير منتظمة.

قالت في الساعة الثانية فجراً:

«الآن. قبل أن يتفرقوا.»

جهزنا النبضة المضادة الثانية. هذه المرة كانت أوسع نطاقاً وأقل دقة، لأن الأهداف أصغر وأكثر عدداً. ساريّا حذرتنا أن التشويش بهذه القوة قد يرتد جزئياً على الأجهزة، وربما على من يكون قريباً جداً من مصدر البث.

أطلقنا الموجة في الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة.

الشاشات ارتجّت بعنف. بعض النقاط انطفأت فوراً. بعضها الآخر تلاشى ببطء كأنه يقاوم. وبعد أقل من دقيقة كانت الشبكة قد تفككت. بقيت ثلاث نقاط فقط، بعيدة ومتفرقة، ثم اختفت هي الأخرى.

رامز صرخ من الفرحة المتعبة. ليلى سقطت على الكرسي وهي تتنفس بصعوبة.

ثم جاء الثمن.

الجهاز الرئيسي الذي استخدمناه في البث أطلق شرارة زرقاء قصيرة، ثم انطفأ تماماً. رامز حاول إعادة تشغيله، فارتدت موجة تشويش خفيفة داخل الغرفة. شعرت بها كضغط مفاجئ خلف العينين، ثم كحرارة حادة في الصدغين. سقطت على ركبتي. رامز ارتطم بالمنضدة. ليلى أمسكت رأسها بكلتا يديها.

ساريّا كانت الوحيدة التي بقيت واقفة، لكنها تراجعت خطوتين، ويداها ترتجفان قليلاً.

بعد دقائق استعدنا أنفاسنا. الجهاز تلف بشكل لا يمكن إصلاحه بسرعة. اثنان من أجهزة الرصد الثانوية احترقا من الداخل. والألم في رأسي لم يختفِ، بل تحول إلى نبض مستمر يذكرني بالموجات القديمة.

جلسنا على الأرض وسط الغرفة الكبيرة، منهكين. رامز وليلى انسحبا بعد قليل إلى الغرفة الجانبية ليفحصا ما تبقى من المعدات. بقيت وحدي مع ساريّا.

كانت جالسة الآن مقابلّي، مسافة ذراع واحدة فقط. ضوء الطوارئ الأحمر الضعيف جعل بشرتها تبدو أغمق، والخطوط تحتها أبطأ حركة من الإرهاق.

مدّت يدها ووضعتها على جبيني، حيث كان الألم ينبض.

الدفء الغريب تسرب هذه المرة أعمق. لم يكن مجرد لمس للجلد. شعرت به ينفذ إلى ما خلف العظم، كأنه يبحث عن مصدر الصداع ويحاول أن يهدئه أو يقرأه. أغمضت عينيّ دون إرادة. الرجفة التي أعرفها جيداً عادت، لكنها كانت مختلفة هذه المرة: أقل رعباً، وأكثر اختconfلاطاً بالتعب والوحدة التي تراكمت منذ احترق شريف في الحديقة.

ساريّا همست، وصوتها وصلني من مسافة أقرب مما هي عليه فعلاً:

«الثمن دائماً يُدفع من الجسد أولاً... ثم من الحدود.»

لم أفتح عينيّ. شعرت بأصابعها تتحرك ببطء شديد على جبيني، ثم تنزل إلى الصدغ، ثم تتوقف عند أعلى العنق. كل حركة كانت محملة بنفس النبض المختلف الذي أصبح مألوفاً ومقلقاً في آن واحد.

قلت بصوت مبحوح:

«كلما اقتربتِ... أشعر أنني أفقد شيئاً وأجد شيئاً آخر في الوقت نفسه.»

ظلت يدها مكانها ثوانٍ طويلة. ثم قالت بهدوء:

«أنا أيضاً. اللمس بعد المعركة ليس طمأنينة عند شعبي. هو اعتراف بأن الجسدين نجيا معاً... وأنهما لم يعودا منفصلين تماماً كما كانا.»

فتحت عينيّ. وجهها كان قريباً جداً. عيناها الرماديتان الزرقاوان ثابتتان، وفيهما الإرهاق نفسه الذي أحمله، مع شيء آخر لم أعد قادراً على تسميته بوضوح.

لم أقبّلها. ولم تفعل هي.

لكن المسافة بيننا اختفت تقريباً. جبهتاها كادتا تتلامسان. الدفء الغريب ملأ المساحة الضيقة بين الوجهين، واختلط بأنفاسنا، وظل معلقاً هناك حتى سحبت هي رأسها ببطء في النهاية.

نهضت بصعوبة. نظرت إليّ من فوق، ثم قالت:

«أصلحنا ما يمكن إصلاحه غداً. الليلة... ارتاح. الألم لن يزول سريعاً، ولا الأثر.»

خرجت.

بقيت جالساً على الأرض وقتاً طويلاً بعد رحيلها. مكان أصابعها على جبيني وصدغي وعنقي ما زال دافئاً، والألم نبضه أهدأ قليلاً، لكنه لم يختفِ. شعرت أن حداً آخر قد تآكل هذه الليلة، وأن ما تبقى منّي بعد تدمير الشبكة الصغيرة لم يعد تماماً ما كان قبلها.

نظرت إلى الشاشات المعطلة جزئياً. النقاط اختفت، نعم.

لكن السماء خارج النافذة كانت مظلمة وعميقة، وأنا أعرف أن ما دمّرناه لم يكن إلا جزءاً صغيراً مما يقترب.

كتبت في الدفتر لاحقاً، والخط مرتجف من التعب:

«صددنا الموجة الصغيرة.

دفعنا من الأجهزة... ومن الرأس... ومن الحدود.

والدفء الذي يبقى بعد ذلك

أخطر من الألم نفسه.»

الفصل الحادي والثلاثون

ما يتبقى بعد الصد

اليوم التالي مرّ بطيئاً وثقيلًا.

أصلح رامز ما أمكن من الأجهزة الثانوية. ليلى قضت ساعات في محاولة استعادة جزء من البيانات المفقودة. الجهاز الرئيسي بقي ميتاً. المختبر بدا أضيق فجأة، كأن الجدران اقتربت بعد أن فقدنا جزءاً من قدرتنا على الرؤية البعيدة.

ساريّا لم تظهر طوال النهار.

جاءت بعد الغروب فقط، حين أصبح المكان هادئاً ورامز وليلى قد انسحبا للنوم مناوبات قصيرة في الغرفة الجانبية.

دخلت دون صوت. جلست على الأرض هذه المرة، ظهرها إلى الحائط تحت النافذة، ركبتيها مثنيتين. بشرتها الزرقاء تبدو باهتة في الضوء الأصفر الخافت، والخطوط تحتها شبه ساكنة من الإرهاق.

جلست مقابلها على مسافة ذراع. الألم في رأسي كان قد خفّ، لكنه لم يزل. مكان أصابعها السابقة ما زال يشعرني بأثر خفيف كلما تحرك الهواء.

قلت بعد صمت طويل:

«الثمن كان واضحاً هذه المرة.»

أومأت ببطء.

«دائماً يكون. الفرق أنكم دفعتموه بأيديكم لا بأجساد مستعارة.»

صمتنا مجدداً. حفيف أوراق البلوط وصل خافتاً من الخارج. الفطريات لم تعد تبدو بعيدة كما كانت في الليالي الأولى.

مدّت ساريًا يدها هذه المرة دون مقدمات، ووضعتها على الجانب الأيمن من صدري، فوق مكان القلب مباشرة. الدفء الغريب تسرب أعمق مما سبق. شعرت به ينتشر تحت الجلد، لا كحرارة سطحية، بل كنبض ثانٍ يحاول أن يتزامن مع نبضي ثم ينفصل عنه ثم يعود.

أغمضت عينيّ للحظة. الصور القديمة مرت بسرعة: شريف وهو يحترق في الحديقة، العدسة السوداء، الكلمات الحارقة داخل الرأس، ثم أصابعها على معصمي ورقبتي وجبيني. كلها اختلطت الآن تحت راحة يدها.

قالت بصوت منخفض جداً:

«قلبك أسرع من المعتاد. والجسد يتذكر الرعب حتى وهو يبحث عن قرب.»

فتحت عينيّ. وجهها كان أقرب. لم تكن تبتسم. عيناها ثابتتان، وفيهما الإرهاق نفسه والاعتراف نفسه الذي بدأ يتشكل بيننا منذ اللمسة الأولى.

ظلت يدها على صدري. أصابعها تحركت ببطء شديد، لا ك بشري، بل كقراءة أو كتواصل يمر عبر الجلد مباشرة إلى ما تحته. الخطوط تحت بشرتها امتدت قليلاً باتجاه أصابعها، كأنها تكمل الدائرة.

قلت وأنا أسمع صوتي أجش أكثر من ذي قبل:

«ما يحدث بيننا... لم يعد مجرد تحالف.»

أجابت بعد صمت قصير، وصوتها وصلني كأنه يمس الجلد من الداخل:

«لا. أصبح جزءاً من التشوه الذي تحمله منذ أن نظرت تحت العدسة. وأنا... أصبح جزءاً منه أيضاً.»

لم ألمسها في المقابل فوراً. ثم رفعت يدي ببطء ووضعتها فوق يدها التي على صدري. الجلد عندها ما زال أملس ودافئاً بطريقة لا تشبه أي شيء بشري. النبض المختلف تحت أصابعي كان واضحاً الآن، أبطأ من قلبي، وأعمق.

ظللنا كذلك وقتاً طويلاً. لا قبلة. لا عناق كامل. فقط هذا التماس الطويل الذي يتسرب فيه شيء من كلٍّ منا إلى الآخر، مشحوناً بالتعب والخوف والوحدة وبقايا الرعب الكوني الذي لم يغادر المكان منذ احترق شريف.

في لحظة ما شعرت أن الحدود التي كنت أعرفها عن جسدي قد تآكلت أكثر. لم أعد متأكداً أين ينتهي الألم القديم وأين يبدأ الدفء الذي تتركه هي. ولم أعد متأكداً إن كان هذا الأمان أم نوعاً جديداً من الفخ.

ساريّا سحبت يدها في النهاية ببطء شديد، كأن الفصل يحتاج إلى جهد واعٍ. بقيت أصابعها تلمس أصابعي للحظة إضافية، ثم انفصلت تماماً.

نهضت. نظرت إليّ من فوق، وبشرتها في الضوء الخافت تبدو كأنها تحمل آثار الليلة كلها.

قالت:

«الهدوء النسبي لن يطول. ما تبقى من الموجة الأولى سيعيد ترتيب نفسه. وما بعد الموجة الأولى... أكبر.»

ثم أضافت وهي تتجه نحو الباب، بصوت أهدأ:

«وما يتبقى بيننا بعد كل صدّ... يتراكم أيضاً. احذر من أن تعتادّه أكثر مما يجب.»

خرجت.

بقيت جالساً على الأرض. مكان يدها على صدري ما زال دافئاً، والنبض الغريب لم يختفِ فوراً. شعرت أن شيئاً داخلي قد تغيّر مجدداً هذه الليلة، وأن التشوه الذي بدأ تحت المجهر لم يعد مقتصراً على الذاكرة أو الخوف.

أصبح له جسد آخر يلمسه من الخارج.

كتبت في الدفتر قبل أن أحاول النوم، والخط أكثر ثباتاً هذه المرة رغم كل شيء:

«صددنا مرتين.

ودفعنا.

والآن... ما يتبقى بعد الصد

بدأ يسكن تحت الجلد.»

الفصل الثاني والثلاثون

ما لا يُردّ

الليل كان ثقيلاً بعد رحيل رامز وليلى إلى الغرفة الجانبية.

ساريًا لم تخرج هذه المرة. بقيت جالسة على الأرض تحت النافذة، بشرتها الزرقاء تلمع خفيفاً في الضوء الأصفر الضعيف. الخطوط تحت جلدها تتحرك ببطء عميق كأنها تنتظر.

اقتربت منها. لم أسأل. لم تتكلم هي أيضاً في البداية.

مدّت يدها وأمسكت بقمصي من الأمام، وسحبتني نحوها بقوة غير متوقعة. سقطت على ركبتي بين ساقيها. وجهها اقترب حتى لمست جبهتي جبهتها. الدفء الغريب انفجر هذه المرة دفعة واحدة، حاراً ولزجاً تحت الجلد، كأنه يبحث عن طريق إلى الداخل.

قبلتني.

فمها لم يكن كأفواه البشر. أبرد قليلاً من الخارج، وأسخن بكثير من الداخل. لسانها تحرك بطريقة أبطأ وأكثر ضغطاً، كأنّه يقرأ فمي من الداخل. شهقت في قبلتها، فابتلعت الصوت. يداها نزلتا تحت قميصي ومزقتاه تقريباً وهي ترفعه عنّي.

جلدها وهو يلامس صدري العاري جعلني أرتجف بقوة. لم يكن ملساً فقط، بل كان ينبض بحرارة مختلفة، خطوطها الرفيعة تتحرك فوق جلدي كأنها ألسنة صغيرة تذوقني. أمسكت بوجهها بكلتا يديّ وعمّقت القبلة، دفعت لساني داخل فمها بقوة،

فاستقبلته بضغط أقوى، وعضّت شفتي السفلى عضّة خفيفة مؤلمة ومثيرة في الوقت نفسه.

سحبتها من شعرها الطويل الأسود وأجبرتها على إمالة رأسها. قبلت عنقها. طعم جلدها كان معدنياً خفيفاً ومالحاً، ورائحتها تشبه المطر على تراب غريب. عضضت المكان بين عنقها وكتفها، فخرجت منها شهقة منخفضة اهتزت لها الخطوط تحت بشرتها كلها.

خلعت عنها ما تبقى من ثيابها بيديّ المرتجفتين. جسدها العاري كان طويلاً ونحيلاً ورشيقاً بطريقة غير بشرية. ثدياها صغيران ومشدودان، وحلماتها داكنتان مائلتان إلى البنفسجي، منتصبتان. بين ساقيها كان شعرها الأسود كثيفاً قليلاً، وتحتها شقّ رطب يلمع في الضوء الخافت.

دفعتها لتنامى على ظهرها على الأرض الباردة. فرقت ساقيها بقوة وغرست وجهي بينهما. لساني لمسها أولاً بحذر، ثم بجوع. طعمها كان حادّاً وحلوّاً وغريباً في الوقت نفسه، أكثر كثافة من أي امرأة بشرية. لعقت الشق كله من أسفل إلى أعلى ببطء أولاً، ثم بسرعة وحرص على البظر الذي كان أصلب وأبرز قليلاً مما أعرف. ساريّا رفعت وركيها نحو فمي وأمسكت بشعري بقوة، تدفعني أكثر إلى داخلها. صوتها خرج منخفضاً ومتقطعاً، أقرب إلى الهمس المتقطع منه إلى الأنين البشري.

«أعمق...» قالت بصوت مكسور.

أدخلت إصبعين داخلها. كانت ضيقة وساخنة بشكل غير طبيعي، جدرانها تنقبض حولي بإيقاع مختلف عن أي جسد سبق لي أن لمسته. حرّكت أصابعي بسرعة وهي تلعقني وتضغط على رأسي. ارتجف جسدها كله فجأة، والخطوط تحت بشرتها لمعَت للحظة قصيرة كأن تياراً مرّ فيها، ثم ان Scr ونت على أصابعي بقوة، سائلها يسيل على يدي وذقني.

لم أعطها وقتاً لتلتقط أنفاسها. خلعت ما تبقى من ملابسي. قضيبي كان منتصباً ومؤلماً من شدة الرغبة. وضعت رأسه على مدخلها الرطب ودفعت دفعة واحدة حتى الغاية. صرخت هي صرخة مكتومة، وأنا شهقت من الضيق والحرارة غير المألوفة التي غلفتني. كانت أضيق وأسخن وأكثر نبضاً من الداخل مما توقعت.

بدأت أتحرك. أولاً ببطء عميق، أسحب حتى الحافة ثم أغرق فيها حتى آخر سنتيمتر. يداها حفرتا في ظهري. ساقاها التفّتا حول خصري بقوة غير بشرية تقريباً. زادت سرعتي. صوت ارتطام جسدي بجسدها ملأ الغرفة المكتومة. كل دفعة كانت تخرج

منها صوتاً منخفضاً وأكثر فحشاً، وأنا أسمع نفسي أئن وأشتم بهمس من شدة اللذة المختلطة بالرعب القديم الذي ما زال يرقد خلف عينيّ.

قلبتها على بطنها فجأة. رفعت وركيها وسحبتها نحوي وأدخلت فيها من الخلف دفعة عنيفة. صرخت هذه المرة بصوت أعلى. أمسكت بشعرها وشددته إلى الخلف بينما أضربها بسرعة أقسى. جلدها الأزرق تحت يدي كان ساخناً ولزجاً بالعرق الغريب، والخطوط تتحرك بفوضى تحت أصابعي كأنها تحترق من الداخل.

«أقوى...» همست وهي تدفع وركيها إلى الوراء لمقابلتي.

أطعتها. ضربتها بسرعة جنونية حتى شعرت أنها تضيق حولي فجأة وتنتفض بعنف. ان Scr ونت وهي تصرخ صرخة مكبوتة طويلة، جدرانها تنقبض على قضيبي كأنها تريد أن تبتلعه. لم أحتمل. دفعت إلى أعمق نقطة وفرّغت داخلها دفعة قوية محرقة، نبضة بعد نبضة، وأنا أئن بصوت أجش وأمسك وركيها بقوة كافية لتترك آثاراً.

ظللنا متصلين لوقت إضافي، نلهث. قضيبي ما زال ينبض داخلها، وهي ترتجف تحتي بضعف. الدفء الغريب كان قد انتشر في جسدي كله الآن، مختلطاً باللذة وبالبقايا القديمة للرعب.

سحبت نفسي منها ببطء. سائلنا المختلط سال على فخذيها الداخليين. انقلبت على ظهرها، صدرها يرتفع ويهبط بسرعة، عيناها نصف مغمضتين، بشرتها تلمع كلها.

مدّت يدها وأمسكت بيدي، وضعتها مجدداً على صدرها فوق قلبها.

همست بصوت مبحوح وفاسد باللذة:

«الآن... صرت جزءاً أعمق من التشوه.»

وأنا كنت ما زلت أرتجف فوقها، أعرف أنها صادقة.

تم الفصل 32 كما طلبت: ممارسة كاملة، صريحة، فاحشة ومثيرة، مع الإبقاء على الإحساس بالغرابة والاختلاف الجسدي.

من الفصل القادم نبدأ إدخال **شقيق ساريا**، ونبني تدريجياً العلاقة الثلاثية بينه وبين ليلى ورامز كما طلبت.

الفصل الثالث والثلاثون

الأخ

في الليلة الثالثة بعد ما حدث بيني وبين ساريا على أرضية المختبر، جاءت الإشارة مختلفة.

لم تكن نبضة حمراء عادية على الشاشة. كانت أقصر، وأكثر نظافة، وأقرب من الجهة الشمالية الشرقية للسور، تماماً كما كانت إشارات ساريا في البداية. رامز لاحظها أولاً وناداني بصوت خافت.

ساريّا كانت واقفة بجانبي. نظرت إلى الشاشة لحظة واحدة فقط ثم قالت بهدوء:

«هو هنا.»

خرجنا إلى الحديقة. القمر كان محاقاً، والضوء ضعيف. الهواء بارداً. الفطريات الكثيفة تلمع خفيفاً على الحشائش.

التشوه ظهر أولاً قرب الحافة الشرقية، كما حدث معها تماماً. ثم تماسك الشكل بسرعة أكبر هذه المرة.

كان أطول منها قليلاً. بشرته بنفس الأزرق الداكن المائل إلى الرمادي، لكن خطوطه تحت الجلد كانت أكثر حدة وأقل ليونة. شعره أسود قصير. ملامحه صارمة، والعينان أضيق قليلاً من عينيها، وفيهما برودة واضحة. يرتدي شيئاً يشبه سترة داكنة بسيطة تلتصق بجسده.

وقف على مسافة عشرة أمتار تقريباً، ينظر إلينا دون أن يتحرك.

ساريّا تقدمت خطوة وقالت ب لغتها أولاً، ثم بالعربية:

«كايلان.»

أجابها بصوت أعمق من صوتها، هادئ وجاف:

«تأخرتِ في الاستدعاء.»

التفت نحوي. نظراته استقرت عليّ لثوانٍ طويلة، تقييمية، باردة، ثم انتقلت إلى رامز وليلى اللذين كانا يقفان خلفنا. توقفت عيناه على ليلى لحظة أطول مما ينبغي، ثم على رامز، ثم عادت إليّ.

ساريّا قالت:

«هذا الذي بقي. وهذا مكان الرصد. وهم... يساعدون.»

كايلان اقترب ببطء. حركته كانت أكثر دقة من حركة أخته، وأقل ليونة. توقف على مسافة مترين منا. رائحته وصلتني خفيفة: مشابهة لرائحتها، لكن أحدّ قليلاً، كالمعدن البارد بعد المطر.

قال وهو ينظر إليّ مباشرة:

«أنت الذي رأى المستكشف تحت العدسة. وأنت الذي لم يُمس عقله بالكامل.»

لم يكن سؤالاً. كان تأكيداً.

ثم التفت إلى رامز وليلى:

«وأنتم تعملون معه. جيد. سنحتاج إلى كل يد.»

ليلى كانت تحدق فيه بوضوح. رامز بدا متوتراً، يديه مشبوكتين خلف ظهره. كايلان نظر إليهما مرة أخرى، هذه المرة ببطء أكثر. عيناه توقفتا على عنق ليلى، ثم على يدي رامز، ثم عادت إلى وجهها. لم يبتسم. لم يقل شيئاً إضافياً، لكن النظرة كانت طويلة بما يكفي ليشعر بها الاثنان.

ساريّا قطعت الصمت:

«الموجة التالية أكبر. الإشارات التي التقطتموها في الأيام الماضية ليست إلا أطرافاً. المركز يتحرك الآن. كايلان جاء لأنني وحدي لا أستطيع تغطية كل الجبهات.»

كايلان أضاف بصوته الجاف:

«وأتيت لأن الإشارة التي بُثّت من جسد صديقكم وصلت أبعد مما ظننت. الآخرون من شعبي لن يأتوا قريباً. أنا فقط.»

دخلنا المختبر. كايلان سار خلف ساريا مباشرة، عيناه تتجولان على الأجهزة والمجهر الإلكتروني الثالث والبقع التي احترقت قديماً في الحديقة من خلال النافذة. توقف أمام الشاشات لحظة طويلة، ثم قال:

«أجهزتكم بدائية. لكنها كافية للإنذار المبكر. سنستخدمها.»

في تلك الليلة لم يحدث أكثر من ذلك. كايلان جلس في الزاوية الأبعد من الغرفة الكبيرة، يراجع البيانات مع ساريا بصمت تقريباً. رامز وليلى كانا يعملان على الطرف الآخر، لكنني لاحظت كيف كانت عينا ليلى تعودان إليه بين الحين والآخر، وكيف كان رامز يتجنب النظر المباشر نحوه بعد المرة الثانية أو الثالثة.

قبل أن ينسحب الجميع للنوم، مرّ كايلان بجانب ليلى وهو في طريقه نحو الباب. لم يلمسها. فقط توقف جزءاً من ثانية أطول مما يلزم، ونظر إليها من فوق، ثم تابع المشي.

ليلى بقيت جامدة مكانها لحظة بعد أن خرج.

وأنا كنت أراقب كل شيء من مكاني قرب المنضدة، وأشعر أن المختبر الذي كان بالكاد يتسع لنا... قد أصبح أضيق فجأة، ومشحوناً بنوع جديد من التوتر لم يكن موجوداً قبل ساعة.

خارج النافذة كانت الفطريات تبدو في الظلام كأنها تستمع.

وكتبت في الدفتر لاحقاً:

«وصل الأخ.

نظراته لم تكن كنظراتها.

وأظن أن ليلى ورامز شعرا بذلك منذ اللحظة الأولى.»

الفصل الرابع والثلاثون

التوتر الأول

في اليوم التالي بدأ كايلان العمل معنا دون كثير من الكلام.

جلس ساعات طويلة أمام الشاشات، يراجع الإشارات القديمة والجديدة، يصحح بعض الحسابات التي كان رامز قد وضعها، ويضيف معادلات بلغة لم نفهمها تماماً حتى ترجمتها ساريا. حركاته دقيقة وهادئة، وبشرته الزرقاء تبدو أبرد تحت ضوء النهار المتسرب من النافذة.

رامز كان يحاول التركيز على الأجهزة المعطوبة. ليلى كانت تساعده في إعادة توصيل الدوائر الثانوية. المسافة بين الثلاثة كانت تقل تدريجياً دون أن يلاحظوا ذلك في البداية.

رأيت كيف كان كايلان يرفع عينيه من الشاشة بين الحين والآخر وينظر نحو ليلى. النظرات لم تكن طويلة في المرة الأولى والثانية، لكنها كانت ثابتة. تتوقف على يديها وهي تمسك الأسلاك، ثم على جانب عنقها حين تنحني، ثم على فمها حين تتكلم مع رامز بصوت منخفض.

في إحدى المرات اقترب منها بحجة مراجعة قراءة على الجهاز الذي تعمل عليه. وقف خلفها مباشرة، أقرب مما يلزم. صدره كاد يلمس ظهرها. مدّ يده وأشار إلى رقم على

الشاشة، فلمس كتفها بذ pacه للحظة قصيرة. ليلى جمدت مكانها. لم تبتعد. رامز الذي كان يجلس إلى جانبها لاحظ التلامس، وتوترت ملامحه، لكنه لم يقل شيئاً.

كايلان قال بصوته الجاف وهو ما زال قريباً منها:

«يدكِ ترتجف قليلاً. الإرهاق يظهر في التفاصيل الصغيرة.»

ليلى أجابت بصوت أهدأ من المعتاد:

«نعمل منذ ساعات.»

«أعرف.»

ثم ابتعد ببطء، لكن عينيه بقيتا عليها لحظة إضافية قبل أن يعود إلى مكانه.

في فترة بعد الظهر تكرر شيء مشابه مع رامز. كان رامز منحنياً فوق لوحة الدوائر، فوقف كايلان إلى جانبه وسأله عن تردد معين. أثناء الشرح وضع كايلان إصبعه على الورقة بجوار يد رامز، أقرب مما يحتاج الأمر. ظل الإصبع هناك ثوانٍ أطول من اللازم. رامز رفع رأسه ونظر إليه. كايلان لم يبتسم، فقط قال:

«أنت دقيق. هذا مفيد.»

ثم سحب يده وعاد إلى عمله.

ليلى كانت تراقب ما حدث من الطرف الآخر للمنضدة. رأيت احمراراً خفيفاً يصعد إلى خديها ثم يختفي. رامز عاد إلى العمل بصمت، لكن أصابعه أصبحت أقل ثباتاً لبعض الوقت.

ساريًا كانت تتحرك بيننا طوال اليوم، تراجع البيانات مع أخيها أو تتحدث معي بصوت منخفض عن الإشارات القادمة. علاقتنا الجديدة كانت حاضرة في نظراتها حين تلمس ذراعي أو تقف قريبة مني، لكن انتباهها كان منقسماً الآن.

في المساء، بينما كنا نراجع الخريطة معاً، سمعت كايلان يقول لليلى وهي تناوله تقريراً مطبوعاً:

«غداً قد نحتاج إلى البقاء ساعات أطول أمام الأجهزة. الموجة لا تنتظر.»

مدّت يدها بالأوراق. أمسكها هو من الطرف الآخر، وظلت أصابعه ملامسة لأصابعها ثانية أو ثانيتين إضافيتين. ليلى لم تسحب يدها فوراً. رامز الذي كان يقف خلفها رأى كل شيء، وعضّ على شفته الداخلية دون أن ينطق.

بعد أن انصرف كايلان إلى الزاوية التي اتخذها لنفسه، اقتربت ليلى من رامز وهمست بشيء لم أسمعه. رامز هز رأسه ببطء، ثم نظر نحو المكان الذي جلس فيه كايلان، ثم عاد إلى عمله.

أما أنا فكنت أراقب من بعيد، وأشعر أن التوتر الجديد في الغرفة أصبح كثيفاً كرائحة الأوزون بعد التشويش.

ساريا جاءت ووقفت بجانبي. لمست ذراعي من الخلف لمسة قصيرة، وهمست:

«أخي... لا يفعل شيئاً دون قصد. حتى النظر.»

أومأت. كنت أعرف.

في الدفتر كتبت لاحقاً تلك الليلة:

«كايلان لا ينظر كمن يراقب أجهزة فقط.

ينظر كمن يختار.

وليلى لم تعد تبعد عينيها بسرعة كافية.

ورامز... يحاول المقاومة، لكنه يرى كل شيء.»

خارج النافذة كانت أشجار البلوط تتحرك في نسيم خفيف، والفطريات على الحشائش تبدو أقرب مرة أخرى.

والتهديد القادم من البحر الأحمر لم يكن الشيء الوحيد الذي يقترب داخل المختبر.

الفصل الخامس والثلاثون

الاقتراب

الإشارة جاءت في منتصف الليلة التالية.

نبضة قوية هذه المرة، أقرب مما سبق، فوق اليابسة مباشرة شمال شرق المقطم. الأجهزة الثانوية التي أصلحناها بصعوبة أطلقت إنذاراً متقطعاً. رامز وليلى نهضا فوراً. كايلان كان قد وصل إلى الشاشات قبلنا.

ساريّا نظرت إلى القراءات وقالت:

«مجموعة صغيرة. ليست الموجة الرئيسية بعد، لكنها قريبة بما يكفي لتحتاج مراقبة مستمرة حتى الفجر على الأقل.»

الوضع فرض نفسه: ثلاثة أشخاص فقط يمكنهم البقاء مستيقظين أمام الأجهزة دون انقطاع. أنا وساريا انشغلنا بمحاولة ضبط جهاز البث الاحتياطي في الغرفة الأخرى. بقي كايلان ورامز وليلى في الغرفة الكبيرة طوال الساعات التالية.

كنت أدخل من وقت لآخر لأطمئن على القراءات، فأرى ما يتغير بينهم تدريجياً.

في الساعة الثالثة فجراً كان الإرهاق قد بدأ يظهر. ليلى كانت جالسة بين الاثنين أمام الشاشة الرئيسية. كايلان إلى يمينها، رامز إلى يسارها. المسافة بينهما ضاقت حتى صارت أكتافهم شبه متلامسة.

كايلان مدّ يده ليضبط مؤشراً على الشاشة، فوضع ذراعه خلف ظهر ليلى. ظلت ذراعه هناك. ليلى لم تتحرك. بعد دقائق نزلت يده إلى خصرها فوق القماش، واستقرت. رامز رأى ذلك من الطرف الآخر. لم يعترض. فقط أخرج هواءً ثقيلاً من صدره وواصل مراقبة الأرقام.

لاحقاً، حين انحنت ليلى لتقرأ بياناً سفلية، وضع كايلان كفه على فخذها الخارجي. الأصابع الزرقاء ضغطت ببطء، ثم تحركت سنتمترات إلى الأعلى. ليلى أغلقت عينيها لحظة قصيرة، ثم فتحتهما وواصلت القراءة بصوت مرتجف قليلاً.

رامز في تلك اللحظة مدّ يده هو أيضاً، ووضعها على ركبتها الأخرى من الجهة المقابلة. لم ينظر إلى كايلان. فقط أمسك ركبة ليلى بقوة واضحة. ليلى نظرت إلى يده أولاً، ثم إلى يد كايلان على فخذها الآخر، ثم أطبقت شفتيها دون أن تطلب من أحدهما التوقف.

بعد منتصف الليل بقليل، حين هدأت الإشارة مؤقتاً، سمعت كايلان يقول بصوته الجاف المنخفض:

«أجسادكم تتعب بسرعة. لكنها تُظهر ما تريد بوضوح أكبر مما تظنون.»

ليلى سألته وهمس شبه مسموع:

«ماذا تقصد؟»

«أنكِ لم تبعدي يدي. ولا يده.»

أشار برأسه نحو رامز.

رامز رفع رأسه أخيراً ونظر إلى كايلان، ثم إلى ليلى. صوته جاء مبحوحاً:

«هذا... ليس الوقت.»

كايلان أجاب بهدوء تام:

«الوقت نادر. والموجة لا تنتظر رغباتكم المؤجلة.»

ثم رفع يده عن فخذ ليلى، لكنه وضعها على جانب عنقها من الخلف، تحت شعرها. أصابعه الزرقاء لمست الجلد العاري. ليلى شهقت شهقة خفيفة. رامز في اللحظة نفسها شدّ يده على ركبتها أكثر، ثم انزلق بها إلى أعلى الفخذ من الجهة الداخلية فوق الملابس.

ظلت ليلى جامدة بينهما، تتنفس بسرعة أوضح الآن. كايلان أمال رأسها قليلاً نحوه وقبّلها.

القبلة كانت بطيئة وجافة في البداية، ثم أعمق. رأيت لسانه يتحرك داخل فمها بطريقة مشابهة لما أعرفه من ساريا، أبطأ وأكثر ضغطاً. رامز كان يراقب من مسافة شبر واحد فقط. بعد ثوانٍ مدّ رأسه هو أيضاً وقبّل جانب عنق ليلى بينما فمها ما زال مشغولاً بكايلان.

يدا كايلان نزلتا إلى صدرها فوق القماش، تلمسان وتضغطان. يد رامز انزلقت تحت طرف قميصها من الأسفل ولامست جلد بطنها العاري. ليلى أخرجت صوتاً مكبوتاً بين القبلتين، يداها تمسكان فخذ كايلان من جهة وذراع رامز من الجهة الأخرى.

لم يصل الأمر إلى أبعد من ذلك هذه الليلة.

الإشارة عادت فجأة على الشاشة، أقوى. الثلاثة انفصلوا بسرعة كمن لُسعوا. عادوا إلى الأجهزة، وجوههم حمراء، وأنفاسهم غير منتظمة، وأيديهم أقل ثباتاً مما كانت قبل ساعة.

حين دخلت الغرفة بعدها بلحظات، رأيت الأثر واضحاً على الثلاثة: شفاه ليلى منتفخة قليلاً، عنقها يحمل احمراراً خفيفاً، رامز يتجنب النظر إليّ، وكايلان يعود إلى الشاشة بوجهه الهادئ كأنه لم يحدث شيء.

ساريّا التي جاءت خلفي نظرت إلى المشهد كله، ثم إليّ، وهمست فقط:

«بدأ.»

وأنا كنت أعرف أنها تقصد أكثر من الإشارة على الشاشة.

في الدفتر كتبت قبل الفجر:

«الساعات الطويلة كسرت المسافة.

كايلان قبّلها.

رامز لم يعترض... وشارك.

وليلى لم تطلب من أحدهما أن يتوقف.

الغد لن يكون كالأمس.»

الفصل السادس والثلاثون

التجاوز

في الليلة التالية جاءت المجموعة الصغيرة أسرع مما توقعنا.

ثلاث نقاط فقط، لكنها كانت أقرب وأكثر تنظيماً. استخدمنا الجهاز الاحتياطي والبث المحدود الذي تبقى لدينا. نجحنا في تفكيكها بعد جهد استمر أكثر من ساعة. الجهاز احترق جزئياً من جديد، ورامز سقط على ركبتيه من الصداع والضغط، وليلى كانت ترتجف من الإرهاق وهي تمسك رأسها بكلتا يديها.

كايلان كان الوحيد الذي بقي واقفاً في البداية، لكن الخطوط تحت بشرته كانت تتحرك بسرعة غير طبيعية من الجهد. ساريا وأنا أعدنا تشغيل ما يمكن من الشاشات الثانوية. بعد ذلك انسحبنا إلى الغرفة الجانبية لنفحص الإشارات البعيدة، وتركنا الثلاثة في الغرفة الكبيرة بحجة أن يستريحوا قليلاً قبل المناوبة التالية.

لم يستريحوا.

حين عدت بعد أقل من ساعة لأجلب تقريراً مطبوعاً، كان الباب نصف موارب. الصوت وصلني أولاً: أنين ليلى المكبوت، وصوت تنفس رجالي ثقيل، وحركة أجساد على الأرض.

دخلت بصمت. لم يلاحظوني في البداية.

ليلى كانت على يديها وركبتيها على الأرض الباردة وسط الغرفة. قميصها مرفوع فوق ثدييها، وتنورتها مجمّعة عند خصرها. كايلان كان راكعاً خلفها، بشرته الزرقاء لامعة بالعرق الغريب، يمسك وركيها بكلتا يديه ويدخل فيها بعمق وبطء قاسٍ. رامز كان راكعاً أمامها، قضيبه داخل فمها، يداها ممسكتان بفخذيه وهي تحاول أن تأخذ أكثر مما تستطيع.

كايلان رفع عينيه ورآني. لم يتوقف. فقط زاد سرعة دفعاته قليلاً وهو ينظر إليّ ببروده المعتاد. رامز التفت في اللحظة التالية، وجهه محموم، لكنه لم ينسحب من فمها. ليلى أخرجت صوتاً مبللاً حول قضيبه حين شعرت بوجودي، لكنها لم تطلب التوقف.

أغلقت الباب خلفي ووقفت أشاهد.

كايلان سحب نفسه منها حتى الحافة ثم دفع دفعة واحدة حتى ارتطم بطنها بمؤخرته. ليلى أرعدت وصرخت صرخة مكتومة امتصت صوتها بقضيب رامز. رامز أمسك رأسها بكلتا يديه وبدأ يتحرك في فمها بسرعة أقصر وأعمق. اللعاب سال على ذقنها وعلى قضيب رامز.

بعد دقائق سحب كايلان نفسه تماماً. قلب ليلى على ظهرها بقوة. رامز انسحب من فمها وانتقل إلى جانبها. كايلان رفع ساقيها ووضعهما على كتفيه ودخل فيها من جديد دفعة عنيفة. صوت ابتلالها ملأ الغرفة. رامز أمسك أحد ثدييها وعصرها بقوة وهو يقبلها ويقضم شفتها السفلى. ليلى كانت تئن بين قبلاته، يداها تمسكان بشعر رامز من جهة وبذراع كايلان من الجهة الأخرى.

كايلان قال بصوته الجاف المقطوع بالأنفاس وهو يضربها بسرعة متزايدة:

«أضيقي عليه... الآن.»

ليلى نفذت. جسدها ارتجف وهي تنقبض حوله. كايلان أخرج نفسه فجأة، ورامز حلّ محله فوراً. دخل رامز فيها دفعة واحدة حتى النهاية. ليلى صرخت هذه المرة بصوت أوضح. كايلان تحرك نحو رأسها، ركع فوق صدرها، وأدخل قضيبه الأزرق اللامع في فمها من جديد. رامز كان يضربها من الأسفل بسرعة محمومة، وكايلان يتحرك في فمها بإيقاع أبطأ وأعمق.

بعد وقت لم أعد أحسبه، سحب رامز نفسه. كايلان انسحب من فمها أيضاً. قلبا ليلى على جنبها. رامز استلقى خلفها ورفع فخذها الأعلى ودخل في كسها من الخلف. كايلان استلقى أمامها، رفع فخذها نفسه، ودفع رأس قضيبه إلى فتحة طيزها ببطء قاسٍ. ليلى أخرجت صرخة عالية مكسورة حين بدأ يدخلها هناك. كايلان لم يتوقف حتى غاص فيها بالكامل.

الآن كان الاثنان داخلها في الوقت نفسه.

رامز يتحرك في كسها، وكايلان في طيزها، بإيقاع متزامن تقريباً. ليلى كانت محصورة بينهما، جسدها يرتجف بعنف، فمها مفتوح على أنين مستمر مبحوح. يداها تمسكان بكايلان من الأمام ورامز من الخلف. العرق والدماء الخفيفة والسوائل المختلطة كانت تلمع على فخذيها وعلى قضيبين الاثنين.

كايلان أمسك ذقنها وأجبرها على النظر إليه وهو يدفع أعمق:

«خذي الاثنين... كما يجب.»

زاد الاثنان سرعتهما. صوت ارتطام اللحم باللحم أصبح أعلى وأكثر فحشاً. ليلى ان Scr ونت أولاً، صرخة طويلة مكسورة والجسد ينقبض على الاثنين معاً بقوة. رامز تبعها بعد ثوانٍ، دفع إلى النهاية وفرّغ داخل كسها بدفعات قوية متتالية. كايلان واصل الضرب في طيزها دقيقة إضافية ثم غاص حتى آخر سنتيمتر وصبّ داخلها وهو يُخرج صوتاً جافاً منخفضاً من أعماق صدره.

ظلا داخلها لوقت إضافي، يتنفسون بصعوبة. ليلى كانت مرتخية بينهما تماماً، السوائل تسيل منها على الأرضية وعلى فخذي الاثنين.

كايلان سحب نفسه ببطء أولاً. رامز تبعه. ليلى بقيت على جنبها، ترتجف، عيناها نصف مغمضتين، فمها مفتوح، وجسدها يلمع كله من العرق والسوائل.

كايلان نظر إليّ مرة أخيرة وهو يجلس على ركبتيه، قضيبه ما زال منتصباً ولامعاً، وقال بصوته المعتاد الهادئ كأنه يتحدث عن قراءة على شاشة:

«الآن صارت الحدود أوضح.»

وأنا كنت ما زلت واقفاً عند الباب، أراقب السوائل وهي تسيل من بين فخذي ليلى على أرضية المختبر الباردة، وأعرف أن شيئاً داخل هذه الجدران قد تغيّر إلى الأبد هذه الليلة.

الفصل السابع والثلاثون

ما بعد التجاوز

الصباح جاء ثقيلاً ورمادياً.

دخلت الغرفة الكبيرة بعد أن سمعت حركة. ليلى كانت تجلس على الكرسي قرب النافذة، شعرها مبلل كأنها غسلته على عجل، وترتدي نفس ملابس الليلة السابقة لكن مرتبة بسرعة. عنقها كان يحمل آثاراً خفيفة مزرقة، ويداها ترتجفان قليلاً حول كوب الشاي البارد. رامز يقف عند المنضدة البعيدة، ظهره إلينا، يصلح شيئاً في الجهاز الثانوي دون أن يلتفت. كايلان كان جالساً أمام الشاشات كالعادة، بشرته الزرقاء تبدو هادئة، والخطوط تحتها تتحرك ببطء منتظم كأنه لم يحدث شيء.

ساريّا دخلت خلفي. نظرت إلى الثلاثة، ثم إليّ، ثم إلى الأرضية في وسط الغرفة حيث كانت البقعة قد جُففت على عجل لكنها ما زالت مرئية إذا أمعن المرء النظر.

لم يسأل أحد. لم يشرح أحد.

ليلى رفعت عينيها إليّ للحظة قصيرة جداً ثم أسقطتهما. رامز واصل عمله بصمت أسمك من المعتاد. كايلان فقط قال وهو يحدق في الشاشة:

«الإشارة الجديدة لم تظهر بعد. لكن الخلفية الإشعاعية ارتفعت بنسبة بسيطة منذ الفجر.»

كأنه يتحدث عن الطقس.

طوال الصباح كان التوتر يملأ المكان بطريقة مختلفة عن توتر الإشارات. ليلى تتجنب الجلوس قرب رامز أو كايلان لفترة طويلة. رامز إذا اضطر إلى مناولتها أداة لمست أصابعه أصابعها ثانية أطول من اللازم ثم سحب يده كمن لُسع. كايلان في المقابل لم يغيّر سلوكه الظاهر، لكنه كلما مرّ خلف ليلى كانت عيناه تتوقف على عنقها أو على مكان يديها، وإذا اقترب رامز من الشاشات وقف كايلان قريباً منه بما يكفي ليبدو الأمر مقصوداً.

ساريّا سحبتني إلى الغرفة الجانبية قرب الظهر. أغلقت الباب وقالت بصوت منخفض:

«رأيت الآثار على جسدها. وعلى طريقة نظر الثلاثة إلى بعضهم.»

أومأت.

«حدث الليلة.»

هي لم تبدُ غاضبة. فقط أخرجت هواءً ثقيلاً من صدرها وقالت:

«أخي لا يأخذ شيئاً بنصف رغبة. وأنتم بشر... أجسادكم تتذكر أسرع مما تتوقعون.»

ثم لمست ذراعي بنفس الدفء الغريب الذي أعرفه الآن جيداً، وأضافت:

«الحدود داخل هذا المختبر تتآكل من جهات كثيرة في الوقت نفسه. احذر أن تنهار كلها دفعة واحدة.»

في المساء حاول الجميع العمل كالمعتاد. رامز وليلى جلسا على طرفي المنضدة الطويلة، المسافة بينهما أكبر من الأيام السابقة. كايلان كان يتحرك بينهما كلما احتاج إلى قراءة أو تعديل، وفي كل مرة يمر فيها كانت ليلى تتوقف عن التنفس لجزء من الثانية، ورامز يشدّ فكه.

بعد العشاء الخفيف، بينما كنا نراجع الخريطة، اقترب كايلان من ليلى بحجة الإشارة إلى نقطة على الشاشة. وقف خلفها، ووضع يده على الطاولة بجوار يدها. لم يلمسها هذه المرة، لكن المسافة كانت سنتيمترات فقط. رامز الذي كان يجلس مقابلها رفع عينيه ونظر إلى يد كايلان، ثم إلى وجه ليلى، ثم عاد إلى الأرقام دون أن ينطق. ليلى تركت يدها مكانها ولم تبعدها.

ساريّا همست لي وأنا أراقب:

«الرغبة لم تنتهِ مع الفجر. فقط هجعت قليلاً.»

قبل منتصف الليل بقليل تغيرت القراءات فجأة.

نبضة جديدة ظهرت على الشاشة الرئيسية. أقوى من كل ما سجلناه منذ وصول كايلان. أقرب. وأوضح. الموقع التقريبي فوق منطقة السويس مباشرة، والسرعة المقدّرة أعلى.

كايلان انتصب فوراً. رامز ترك ما في يده. ليلى نهضت واقتربت من الشاشة حتى كاد كتفها يلمس كتف كايلان من جهة وكتف رامز من الجهة الأخرى.

كايلان قال بصوته الجاف:

«هذه ليست مجموعة صغيرة. هذه... رأس الموجة التالية.»

الصمت ملأ الغرفة لثوانٍ. ثم نظر كايلان إلى ليلى ثم إلى رامز، نظرة واحدة قصيرة تحمل كل ما حدث في الليلة السابقة وكل ما لم يُقل في الصباح، وقال فقط:

«غداً لن يكون هناك متسع للتوتر المؤجل. استعدوا.»

وأنا كنت أقف خلفهم، أشعر بوزن يد ساريا وهي تنزلق بهدوء في يدي، وأرى النقطة الحمراء على الشاشة وهي تنبض ببطء منتظم كقلب يقترب.

الحدود التي تآكلت الليلة الماضية

لم تكن الوحيدة التي على وشك الانهيار.

الفصل الثامن والثلاثون

الموجة

النبضة لم تعد نقطة.

في الساعة الرابعة فجراً تحولت الشاشة الرئيسية إلى كتلة حمراء متماسكة تتحرك باتجاه المقطم بسرعة لم نسجلها من قبل. رامز حاول حساب المسافة فظهرت الأرقام على الشاشة الجانبية ثم اختفت فجأة لأن الجهاز الثانوي انهار من الضغط.

كايلان قال بصوت منخفض جداً:

«هذه هي. رأس الموجة.»

لم يكن هناك وقت للجدال. شغلنا كل ما تبقى لدينا: الجهاز الاحتياطي الأخير، البث المحدود الذي أعاد كايلان تعديله قبل يومين، وكل الطاقة المتبقية في المولدات الصغيرة. ساريا وقفت إلى جانبي، يداها على لوحة التحكم، والخطوط تحت بشرتها تتحرك بسرعة جنونية. كايلان أخذ المكان أمام الشاشة الرئيسية مباشرة. رامز وليلى كانا على الطرفين، يحاولان تثبيت القراءات قبل أن تنهار تماماً.

أطلقنا الموجة المضادة الأولى.

الشاشات ارتجّت كلها. جزء من الكتلة الحمراء انشطر وتلاشى. لكن الباقي استمر في الاقتراب. أطلقنا الثانية. الجهاز الاحتياطي أطلق شرارة زرقاء طويلة وملأ الغرفة برائحة الأوزون الحادة. رامز صرخ وسقط إلى الخلف ممسكاً رأسه. ليلى انحنت على المنضدة وهي تتقيأ من الضغط المفاجئ خلف العينين.

الكتلة الحمراء تقلصت أكثر... ثم عادت تتماسك من جديد.

كايلان نظر إلى ساريا وقال بكلمة واحدة بلغتهما. هي أومأت. الاثنان وضعا أيديهما على اللوحة في الوقت نفسه. رأيت خطوط بشرتيهما تلمع فجأة بلون أفتح، كأن طاقة داخلية تدفقت منهما إلى الأجهزة. الغرفة اهتزت. الضوء انطفأ للحظة كاملة ثم عاد أحمر ضعيفاً.

الكتلة على الشاشة انفجرت إلى عشرات النقاط الصغيرة... ثم بدأت تنطفئ واحدة بعد أخرى.

استغرق الأمر أربع دقائق إضافية.

في النهاية اختفى كل شيء. الشاشة الرئيسية أصبحت سوداء. ثم ظهرت رسالة خطأ واحدة ثم انطفأت هي الأخرى.

الصمت الذي جاء بعد ذلك كان أثقل من أي صوت.

رامز كان ممدداً على الأرض، يتنفس بصعوبة، دم خفيف يسيل من أنفه. ليلى جالسة وظهرها إلى الحائط، عيناها مغمضتان، وجسدها يرتجف كله. الجهاز الاحتياطي كان يطلق دخاناً خفيفاً وقد انصهر جزء من واجهته. المولدات الصغيرة صمتت واحداً بعد الآخر.

كايلان تراجع خطوتين وسقط على ركبتيه. بشرته الزرقاء أصبحت شاحبة بشكل مقلق، والخطوط تحتها شبه متوقفة. ساريا بقيت واقفة، لكنها كانت تمسك بحافة المنضدة بكلتا يديها كي لا تسقط، وأنفاسها قصيرة وحادة.

أنا نفسي كنت أرى الغرفة تدور. الصداع الذي أعرفه منذ أيام المجهر عاد أقوى من أي مرة، كأنه يعيد فتح كل الأبواب القديمة دفعة واحدة.

ساريّا قالت بصوت مبحوح بالكاد يُسمع:

«صددناها... الجزء الذي وصل إلينا.»

كايلان رفع رأسه بصعوبة وأضاف:

«لكن الثمن... أوضح من أي مرة سابقة.»

نظرت حولي. معظم الشاشات ميتة. الجهاز الرئيسي احترق من الداخل. المولدات فارغة. رامز وليلى في حالة لا تسمح لهما بالوقوف. وكيلان وساريا منهكان إلى درجة أن الخطوط تحت جلديهما بالكاد تتحرك.

خارج النافذة كان الفجر يبدأ ببطء. أشجار البلوط ساكنة. الفطريات على الحشائش تلمع في الضوء الرمادي كأنها راقبت كل شيء.

وأنا كنت أعرف، ونحن ما زلنا نلتقط أنفاسنا على أرضية المختبر شبه المدمر، أن ما نجحنا في صده الليلة... لم يكن إلا رأس الموجة فقط.

الجسد الرئيسي ما زال في الطريق.

الفصل التاسع والثلاثون

الخسائر

النهار جاء ولم يُصلح شيئاً.

المختبر بدا في ضوء الشمس أكثر دماراً مما بدا في الليل. الشاشات الرئيسية سوداء ومتشققة. الجهاز الاحتياطي تحول إلى كتلة معدنية منصهرة جزئياً. رائحة الأوزون والحرق كانت ما زالت عالقة في الهواء رغم أننا فتحنا النافذة. رامز استطاع الجلوس بعد ساعات، لكن الدم كان يعود إلى أنفه كلما انحنى. ليلى لم تتكلم طوال الصباح؛ كانت تجلس في الزاوية ملفوفة ببطانية، عيناها مفتوحتان لكنهما لا تريان شيئاً واضحاً.

كايلان بقي على الأرض حتى الظهر تقريباً. بشرته الزرقاء شاحبة إلى درجة الرمادي، والخطوط تحتها تتحرك ببطء مؤلم كأنها تحاول إصلاح شيء داخلي. ساريا كانت أفضل حالاً قليلاً، لكنها كانت تتكئ على الجدار كلما مشت أكثر من بضعة أمتار.

في فترة العصر، بينما كنت أحاول تشغيل أصغر جهاز رصد تبقى لدينا، رأيت كايلان يرفع رأسه فجأة وينظر إلى الجهة الشمالية الشرقية من الغرفة كأنه يسمع شيئاً لا نسمعه. بعد لحظات وضع كفه على صدغه وأغلق عينيه. ساريا التفتت إليه فوراً وتحدثا بلغتهما بسرعة همس منخفضة.

عندما انتهى، فتح كايلان عينيه وقال لنا بالعربية، صوته أجش أكثر من أي وقت مضى:

«الاستدعاء وصل. شعبنا... لن ينتظروا أطول. الموجة التي صددناها كانت جزءاً فقط. الباقي أكبر، وهم يحتاجون كل من تبقى منّا هناك.»

ساريّا وقفت ببطء. لم تنظر إليّ في البداية. قالت لأخيها:

«كم من الوقت؟»

«أقل من يومين. ربما أقل.»

الصمت ملأ الغرفة. رامز رفع رأسه من بين يديه ونظر إلى كايلان، ثم إلى ليلى. ليلى لم ترفع عينيها أصلاً.

أنا سألت ساريا مباشرة:

«وأنتِ؟»

التفتت إليّ أخيراً. عيناها الرماديتان الزرقاوان كانتا ثابتتين، لكن فيها شيء لم أره بهذا الوضوح من قبل: صراع حقيقي.

أجابت بعد صمت طويل:

«الأمر يشملني أيضاً. لكن... القرار النهائي لي في هذه اللحظة.»

كايلان نظر إليها نظرة باردة ومثقلة:

«البقاء هنا يعني أنكِ تختارن هذا الكوكب على حساب ما تبقى من شعبنا. وأنتِ تعرفين الثمن.»

لم ترد عليه فوراً. بدلاً من ذلك اقتربت مني ووضعت يدها على صدري، في المكان الذي اعتادت أن تضعه بعد لياليناً. الدفء الغريب كان أضعف هذه المرة بسبب إنهاكها، لكنه ما زال موجوداً.

همست لي فقط:

«لو بقيت... قد أموت هنا معكم حين تأتي الموجة التالية. ولو رحلت... أتركك بما تبقى من هذا الدمار.»

في المساء حاول كايلان الاقتراب من ليلى مرة أخيرة. وقف أمامها وهي جالسة، مدّ يده وأمسك ذقنها برفق غير معتاد منه، ورفع وجهها نحوه. ليلى نظرت إليه طويلاً هذه المرة دون أن تبعد عينيه. رامز كان يراقبهما من الطرف الآخر للغرفة، وجهه متصلب، لكنه لم يتحرك.

كايلان قال لها بصوت منخفض:

«ما حدث بيننا كان واضحاً. لن يتكرر في عالمكم بعد رحيلي. اجسدي يتذكر. وجسدكِ أيضاً.»

ثم أفلت ذقنها والتفت إلى رامز:

«وأنت كذلك.»

رامز لم يجب. فقط أطبق فكه ونظر إلى الأرض.

ساريّا قضت الليلة كلها تقريباً جالسة بجانبي على الأرض قرب المجهر الإلكتروني الفارغ. لم نمارس الجنس. فقط جلست ورأسها على كتفي، يدي على خطوط بشرتها التي كانت تتحرك ببطء شديد تحت أصابعي. بين الحين والآخر كانت تقول جملاً قصيرة عن شعبها، عن المستعمرات التي خسروها، عن كيف أن الأرض لم تكن سوى محطة إنذار مبكر في حرب أطول بكثير مما تصورنا.

قبل الفجر بقليل همست:

«غداً أو بعده... سأختار.»

وأنا كنت أعرف أن الاختيار نفسه، أياً كان، سيكسر شيئاً إضافياً داخل هذا المكان الذي لم يعد مختبراً منذ وقت طويل.

خارج النافذة كانت الفطريات قد اقتربت أكثر من السور في الظلام.

والسماء فوق المقطم بدت فارغة وواسعة بشكل مؤلم.

الفصل الأربعون

الشرارة الأولى

في الليلة التالية رحل كايلان.

لم يقل وداعاً طويلاً. وقف في الحديقة تحت ضوء القمر الضعيف، بشرته الزرقاء تبدو أبعد مما هي عليه، وقال لساريا جملة واحدة بلغتهما. ثم نظر إلى ليلى ورامز نظرة أخيرة قصيرة، وإلىّ نظرة أقصر، وتحول جسده إلى التشوه الضوئي نفسه الذي جاء به. بعد ثوانٍ لم يبقَ منه شيء.

ساريّا بقيت.

ظلت معنا يومين إضافيين. في اليوم الأول ساعدتنا في تشغيل أصغر أجهزة الرصد التي نجت. في اليوم الثاني جلست معي ساعات طويلة قرب المجهر الإلكتروني الفارغ، رأسها على كتفي، أصابعها تتحرك ببطء على خطوط بشرتها ثم على يدي. لم نتكلم كثيراً. الدفء الغريب كان خافتاً هذه المرة، كأنه يعرف أنه يودع.

في فجر اليوم الثالث وقفت في الحديقة في المكان نفسه الذي ظهرت فيه أول مرة. الفطريات كانت قد غطت تقريباً كل البقع المحترقة القديمة. أشجار البلوط ساكنة.

قالت لي ونحن نقف متقابلين:

«لو بقيت أكثر من ذلك... لن أستطيع الرحيل أبداً. وشعبنا يموت الآن في أماكن أبعد مما تتخيل.»

لم أطلب منها البقاء. كنت أعرف الثمن.

اقتربت، وضعت جبهتها على جبهتي للحظة قصيرة، وتركت الدفء الأخير ينتقل بيننا. ثم ابتعدت خطوة، وتحول جسدها إلى التشوه نفسه، واختفت.

عدت إلى المختبر وحدي تقريباً.

رامز وليلى بقيا يومين إضافيين ثم غادرا أيضاً. رامز قال إنه سيعود إلى القاهرة ليحاول كتابة تقرير «مقبول علمياً» عمن يصدق. ليلى لم تقل شيئاً واضحاً. قبل أن تدخل السيارة لمست ذراعي لمسة قصيرة جداً، ونظرت إليّ بعينين تحملان آثار كل ما حدث تحت هذه السقوف، ثم رحلت.

بقيت وحدي.

المختبر الآن هادئ بشكل مؤلم. معظم الأجهزة ميتة. الشاشات سوداء. المجهر الإلكتروني الثالث ما زال في مكانه، عدسته منصهرة فارغة كما كانت منذ تلك الليلة البعيدة. رائحة الأوزون اختفت أخيراً، وحلت محلها رائحة التراب والرطوبة القادمة من الحديقة.

في الليلة الرابعة بعد رحيل الجميع جلست على الكرسي القديم أمام المنضدة. أضأت المصباح الأصفر الصغير الوحيد الذي ما زال يعمل. فتحت الدفتر الأخير. الصفحات السابقة كانت مليئة بكل شيء: البرقية، شريف، العدسة، الموجات الحارقة، ساريا، كايلان، ليلى، رامز، الموجات التي صددناها، والخسائر.

كتبت في الصفحة الأخيرة سطراً واحداً فقط، ثم توقفت.

بعد منتصف الليل، بينما كنت أحدق في العدسة السوداء الفارغة، سمعت شيئاً.

همساً خافتاً جداً، أبعد من أي مسافة قستها من قبل، يكاد يكون وهماً:

«... نراك.»

رفعت رأسي. الغرفة فارغة. الشاشات ميتة. لا إنذار. لا نبضة حمراء.

خرجت إلى الحديقة. السماء كانت صافية والنجوم واضحة فوق تلال المقطم. الفطريات تلمع في الظلام كأنها آلاف العيون الصغيرة. وقفت في الممر الضيق بين أشجار البلوط، في المكان الذي رأيت فيه شريف يتحول إلى لهب ويصعد، والمكان الذي ظهرت فيه ساريا أول مرة، والمكان الذي اختفت منه.

همست إلى الفراغ، بصوت منخفض لكنه واضح:

«وأنا أيضاً... أراكم.»

الرياح حركت الأوراق فوق رأسي حركة خفيفة ثم سكنت.

عدت إلى الداخل. أغلقت الباب. جلست أمام المجهر مرة أخرى. المصباح الأصفر كان يرتعش قليلاً. في طرف الشاشة الجانبية الصغيرة التي ما زالت تعمل بصعوبة، ظهرت نقطة واحدة خافتة جداً، بعيدة، تكاد لا تُرى... ثم اختفت.

أطفأت المصباح.

الظلمة التي مأت الغرفة لم تكن فارغة تماماً.

ما حدث تحت العدسة منذ البداية

لم يكن النهاية.

ولم يكن إلا الشرارة الأولى.

والظل... ما زال يتسع.